

الفصل الثاني

فصل الفقه

الفصل الثاني في الغزل

صورة الغزل في العصرين الجاهلي والإسلامي

هناك جملة من الألفاظ أو المصطلحات تطلق على المعنى المقصود بالغزل مثل النسيب والتشبيب والتغزل^(١) ولكنها جميعاً بمعنى واحد.

ويصادفنا التغزل أو النسيب منذ أقدم نماذج الشعر الجاهلي وعند أقدم شعرائه رغم عدم استقلاله بقصيدة مفردة^(٢).

أول ما يلفت النظر إلى الغزل الجاهلي أصالته في النفس العربية وبلوغه درجة من النضج جعلته جديراً بأن يكون الأساس الذي انبنى عليه من بعد فن الغزل في الشعر العربي كله. بل إن بعض الكتاب يعتبر هذا الغزل هو الباعث على الأغراض الشعرية الأخرى في كثير من المواقف وعند كثير من الشعراء^(٣) - والأغراض المذكورة هنا هي الموضوعات الشعرية التي كان النسيب بصورتيه الطللية والغزلية جزءاً أساسياً من مقدمتها أو من المنهج الأدبي لها، وهكذا كان النسيب عند ابن قتيبة يعتبر موضوعاً ثانوياً بالقياس إلى المديح الذي يعتبره جوهر القصيدة^(٤). في حين يرفض «فالتر براونه» تفسير ابن قتيبة للنسيب إذ يراه غاية في نفسه لا وسيلة لغاية أخرى بل يعتبره بشقيه «الشاذ والعادي» هو المحرك للإنسان في كل زمان ومكان على اختبار القضاء والفناء والتناهي^(٥) وهي نظرة وجودية لا حاجة لنا بها الآن لأن نظرنا للنسيب نظرة جمالية.

وبناء على هذا نستطيع أن نرصد ثلاثة اتجاهات في الغزل الجاهلي هي : اتجاه تقليدي يجمع بين نماذج الإطار العام والعناصر المشتركة، واتجاه صريح أو إباحي سواء أكان حسيماً جاء وصفاً لمواطن الإثارة من جسم المرأة أم معنوياً من كونه تعبيراً عن الرغبة الغريزية أو حكاية عما يحدث بين الرجل والمرأة - في صورة مغامرات غرامية أما الاتجاه الثالث فهو المعروف بالغزل العفيف أو

(١) في النقد الأدبي عند العرب ص ٣٠٨، ونقد الشعر ص ١٢٣، ولسان العرب (غزل).

(٢) تاريخ الأدب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية لتلينو ص ١٠٢.

(٣) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام لشكري فيصل ص ٢٦.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢١/١.

(٥) الوجودية في الجاهلية لفالتر براونه (مجلة المعرفة السورية - السنة الثانية، حزيران ١٩٦٣).

العذري والذي لا يتجاوز في حسيته حدود الوصف الجمالي تمجيداً لمحاسن المرأة، ولا يتجاوز في معنويته التعبير عن لواعج الحرمان أو اللهفة والشوق للقاء الحبيبة.

هذا، ويتمثل الاتجاه الأول في المقدمات الطللية أو الغزلية وما يتصل بها من وصف لظعن الحبيبة واسترجاع لطيفها إذا ما نأت بها الدار، هذا مع التمايز بين النماذج المختلفة من شاعر لآخر في أسلوب العرض للعناصر المشتركة والتفاوت في نصيب كل مقدمة غزلية أم طللية من تلك العناصر التي نص عليها «ابن قتيبة» أما عن وصف الطيف ووصف مشاهد ظعن الحبيبة فإنهما مكملان لمقدمة الوقوف على الأطلال والمقدمة الغزلية باعتبارها جميعاً أشكالاً متميزة للتعبير عن موقف مأساوي يضع الشاعر في صراع الحياة مع الموت.

أما عن الاتجاهين الآخرين، العذري والإباحي فمع أن لكل واحد منهما أعلامه إلا أن التداخل بينهما واضح في غزل الشاعر الواحد. فامرؤ القيس مثلاً أميل في مقدمته الطللية إلى الغزل العذري في حين جاء غزله في صميم معلقته أدنى إلى الغزل الإباحي، ومثله الأعشى المعروف بإباحيته فقد عد له النقاد أجود ما قيل في طيب عرف المرأة^(١) وفي موضع آخر يقرن جمال صاحبه^(٢) بجمال الطبيعة مما أضفى على صورة الغزل بعداً جديداً متجاوزاً الوصف الحسي إلى ما هو أدنى من الصورة المثالية لها على أن هذا لا يمنع من القول بأن هناك شعراء غلب على غزلهم التعلق بمحوبة واحدة طيلة حياته ولا يكاد يتجاوز في نسيبه هوى النفس إلى شيء من الأوصاف الحسية. وقد عرف الشعراء من هذا الصنف بألقاب منها «عشاق العرب» أو «المتيمون» وقد سبقوا إلى معان ومروا بأحوال ماثلت كثيراً أحوال ومعاني العذريين في الإسلام حتى عدوا عترة أبا للغزل العذري في الإسلام ومن شعراء هذا التيار في الجاهلية عبدالله بن العجلان وصاحبه هند وهو من الذين قتلهم العشق^(٣) ومثله مالك بن الصمصامة وصاحبه جنوب^(٤) ويعد المرقش الأكبر وصاحبه أسماء الذي سخر منه أبو نواس^(٥) وابن أخيه المرقش الأصغر وصاحبه فاطمة بنت المنذر من أشهر عشاق العرب ولا تختلف قصة عبدالله بن علقمة مع صاحبه حبشية عن قصص من سبق ذكره من عشاق العرب وقد أدرك عبدالله الإسلام وقتله جيش خالد بن الوليد ويُقال أن الرسول حين علم بحاله

(١) ديوان المعاني ٢٥٨/١.

(٢) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، للبهيتي، ص ٦٩.

(٣) رسائل الجاحظ ١٠٥/٢.

(٤) الأغاني ٧٩/٢٢ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب وتزيين الأسواق، لداود الأنطاكي، ٩٠/١.

(٥) ديوان أبي نواس، ص ٥٥٧، ٧٢١، ط. الغزالي، ورسائل الجاحظ ١٤٩/٢، وتزيين الأسواق ٩٧/١.

لام قاتليه قاتلاً أما كان فيكم رجل يرحم . هذا، ويعتبر غزل عنترة بن شداد قمة التيار العفيف في الغزل الجاهلي إذ امتزج في حبه لعلبة . الهوى بالبطولة ويقوم وصفه على الإكبار والتمجيد لها مع الإشادة بحياتها وخفرها فإذا نعتها بأنها لذيدة المبسم حسنة الفم شبه طيب ثغرها بالطيب الذي يسبق إليك من وعاء مسك أو بما تنشر من طيبها روضة بكر . ففي غزل عنترة تختلط رقة العاشق بكبرياء الفارس .

أما تيار الغزل الصريح أو الإباحي الجاهلي فخير ممثل له غزل امرئ القيس في مغامراته الغرامية وغزل الأعشى في تغلغله في مفاتن صواحيبه الحسية . وكانت المرأة عند امرئ القيس إحدى لذاته الثلاث الصيد والنساء والخمر وهو زعيم المذهب القصصي في الغزل الجاهلي نظراً إلى أن مغامراته مع صواحيبه كثيرة ومتنوعة^(١) بحيث لم يكن لينهض بأحداثها غير المذهب القصصي . وقد وصف «العسكري» ديبب امرئ القيس إلى صاحبه بقوله : (أجود ما قيل في إخفاء الحركة عند زيارة المعشوق)^(٢) وتعد مغامرات امرئ القيس الغرامية ضرباً من الفتوة، هذا بالإضافة إلى تصويره لمفاتن المرأة تصويراً مادياً محسوساً . وقد صور امرؤ القيس نفسه في إحدى مغامراته الغرامية بأنه أصبح معشوقاً للمرأة وهو بهذا يكون أقرب شعراء الغزل الجاهليين من عمر بن أبي ربيعة من حيث المذهب القصصي في الغزل وكونه أصبح طلبة المرأة^(٣) وهو يعتبر فاتح باب المجون في الغزل على مصراعيه .

أما الأعشى فغزله مثل خمرة يمثل آخر مراحل تطور الشعر الجاهلي قبل الإسلام^(٤) مباشرة . والغزل صنو الخمر في ديوان الأعشى حيث نجده في مقدمات بعض أماديحه وفي مجونياته، وفي مجالسه الخمرية . وقد تركت رحلات الأعشى إلى البلاد الأكثر رقياً من حول بلاد العرب آثارها الواضحة في شعره عامة وغزله خاصة . فهو لا يطيل في الوقوف على الأطلال ولكنه يطيل في النسب في مقدمات قصائده^(٥) . كما شاعت الرقة في شعره وكثرت الألفاظ الأجنبية خاصة الفارسية^(٦) وكان غزله أرق غزل حتى عد له النقاد أغزل وأخنت بيت^(٧) وأحسن ما قيل في الشعور

(١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث، للبهني، ص ٣١٤ .

(٢) ديوان المعاني ١/ ٢٢٥ .

(٣) ديوان امرئ القيس، ص ٣٢، ط . دار المعارف سنة ١٩٥٨ م .

(٤) الأغاني ٩/ ١٢٦ وما بعدها ط . الدار .

(٥) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان ١/ ١٤٨ (الترجمة العربية) .

(٦) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ١/ ٢١٣ . (٧) الأغاني ٩/ ١١٢ ط . الدار .

على رأي بشار. وقد قرنه «ابن سلام» مع امرئ القيس بين الشعراء المتعهرين^(١) فديوانه يعص
بالعديد من أسماء النساء وكان البعض منهن قياناً^(٢) وفي غزله يدقق في وصف الجسم ويتغلغل في
مواضع الفتنة من المرأة وما تخفي ملابسها وكان مفطوراً على خلق الفتيان ويرى أنه لا ينال المرأة
إلا الفاتك الجريء، أما أوصافه لمحاسن صواحيه فلا تكاد تترك عضواً إلا تناولته من شعر وبشرة
وأسنان وجيد وثغر وأنامل . . . إلخ .

كذلك رأيناه يزواج بين ريق صاحبه والخمر، كما أولى زينة المرأة وحليها اهتماماً خاصاً وعنى
أيضاً بملابس المرأة وذكر منها القمصان المصبغة والأكسية المخططة وأنواعاً من الحرائر والقטיפ
وأيضاً سمي ما كانت تستعمل المرأة من طيب كالمسك والعنبر والكافور.

واضح مدى رقى الغزل الجاهلي مع تنوعه واختلاف مدارسه وبيئاته مما جعله بحق الأساس
الذي بنى عليه الإسلاميون أغزالهم من بعد.

.....

وفي العصر الإسلامي استمر الغزل بتياراته الثلاث: التقليدي والعتيف العذري والصريح
الإباحي .

أما التيار العتيف فإن الإسلام نفسه يدعو إلى العفة . وكان عمر بن الخطاب يجلد مَنْ يشب
بالنساء^(٣) حتى أن بعض الشعراء لم يجرؤ على التصريح بما كان يصرح به شعراء الجاهلية، فهذا
حميد بن ثور الهلالي يلجأ إلى الكناية مرة والرمز أخرى للتعبير عما كان يعتلج في صدره من عوامل
الحب والهوى^(٤) على حين أودت صراحة عبد بنى الحسحاس في غزله بحياته^(٥) فإذا مضينا إلى ما
بعد هذا العهد التقينا بشاعر قرشي هو أبو دهل الجمحي الذي عاش في زمن علي بن أبي طالب^(٦)
والذي يعتبر مقدمة لعمر بن أبي ربيعة في منتصف العصر الأموي - فهو مثله قرشي وكان يهوى امرأة
قرشية من قومه بل لقد تعلق بعاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان وشبب بها وهي في طوافها في موسم

(١) طبقات فحول الشعراء، لابن سلام ٤٢/١ بتحقيق محمود شاكر.

(٢) ديوان الأعشى ص ٢٠٩ وغيرها.

(٣) الأغاني ٤/٣٥٦ ط. الدار.

(٤) ديوان حميد بن ثور الهلالي، ص ٣٣ وما بعدها ط. دار الكتب.

(٥) طبقات فحول الشعراء ١/١٨٨ بتحقيق محمود شاكر.

(٦) الأغاني ٧/١١٤ ط. الدار.

الحجج^(١) كما فعل عمر مع فاطمة بنت عبد الملك وغيرها من حرائر قريش .

وبعد أن فقد الحجاز أهميته السياسية مال أهل الحجاز إلى حياة الاستقرار والدعة خاضعين للمؤثرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فأقبلوا على الاستمتاع بلذات الحياة وكثر بينهم المغنون والمغنيات كثرة مفرطة وقامت الدور الترفيهية للسمع وللهو واللعب^(٢) وللموامة بين الدين والدنيا بين الفن والعقيدة خرجوا بنظرية توفيقية سمحت لشعرائهم الغزلين أن يتغنوا في قصائدهم الغزلية أثناء المناسك والشعائر الدينية فالحارث بن خالد المخزومي مثله مثل عمر بن أبي ربيعة لا يرى من حرج في مطاردة عائشة بنت طلحة وهي تعتمر ذاكراً مكة والمحصب والحجون وغيرها من المناسك الدينية^(٣) ومثله عبيد الله بن قيس الرقيات ما أن يرى رقية بنت عبد الواحد العامرية وهي قرشية تسبقه إلى استلام الركن^(٤) وتقيله حتى يهزه المنظر فيتغزل في رقية ذاكراً استلامها الركن وكذلك فعل أبو نواس في العصر العباسي مع صاحبتة جنان حين قبلت الحجر الأسود أما عمر بن أبي ربيعة فهو زعيم شعراء الحجاز عامة وكانت كل صواحيبه من فضليات النساء ومن ذوات الشارات والأحساب والنسب الرفيع فغزله مثل صواحيبه ومثل طبقته الاجتماعية ارسقراطي وأبين في التعبير عن أهواء طبقته التي فيها اقتربت مكانة المرأة من مكانة الرجل كما لم تقترب في أي طبقة أخرى^(٥) وهكذا استطاع عمر أن يكشف عن أدق أحاسيس المرأة الحجازية في عصره المتميزة بجمالها ورفعة نسبها وإقبالها على الحياة وكان أسبق شعراء عصره، إلى معرفة متطلبات المرأة حتى رأيناه يحكم بين السيدة سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة أيهما أجمل^(٦) . وكان عمر صديقاً ودوداً للمرأة يراها أجدر بشعره من الملوك والخلفاء^(٧) ولعله الشاعر الوحيد في زمانه الذي لم يقل في غير الغزل شعراً وهكذا كان غزل عمر جديداً في نظمه ولفظه وفكرته^(٨) .

وفي نفس الوقت الذي ازدهر فيه الغزل الحجازي الصريح ازدهر ضرب آخر من الغزل كان

(١) الأغاني ١٢٢/٧ .

(٢) العصر الإسلامي، لشوقي صيف ص ١٤٣ .

(٣) الأغاني ٣١٢/٣ ط . الدار .

(٤) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص ٣٦ ط . صادر، والأغاني ٩٦/٥ ط . الدار .

(٥) رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، للشكعة، ص ١١٦ .

(٦) الأغاني ١٥١/١٦ ط . الدار .

(٧) نفسه ٧٤/١ ط . الدار .

(٨) رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، للشكعة، ص ١١٨ .

مجاوراً له في المكان ومعاصراً في الزمان وهو الغزل العذري أو العفيف الذي اعتبرنا عنترة بن شداد الأب الشرعي له وهو مشتق من عذره إحدى قبائل العرب التي كانت تقيم في وادي القرى بين المدينة والشام^(١) وجميل بن معمر زعيم التيار العفيف يقابل عمر زعيم التيار الصريح أو الإباحي وصاحبة جميل هي بئنة من قبيلة عذرة أيضاً والجمال والعشق فيها كثير.

ومن الشعراء العذريين مَنْ يتسبون إلى نجد كقيس بن الملوح . وأقدمهم هو عروة بن حزام العذري الذي قتله الهوى وصاحبه عفراء بنت عمه عاش في خلافة عثمان بن عفان وجميع شعراء الغزل العفيف أو العذري انتهوا كما يقول الجاحظ^(٢) بين مجنون هائم على وجهه وبين صريح هوى . هذا ووراء ظاهرة الغزل العذري عاملاً الدين والحياة الاجتماعية مع ما بينهما من انسجام تام فقد أشرب هؤلاء الشعراء قيم بيئتهم وتقاليدها العربية الخالصة ومعها ما جاء به الدين الحنيف من مقتضيات فكانوا أعماء مرتين مرة لطبيعة حياتهم الاجتماعية وأخرى استجابة لمقتضيات الدين فجاء غزلهم منفتحاً بعبير التقى والورع خلوا من الابتذال والكشف عن أسرار المحبين وبينما كان غزل عمر حضرياً بين صواحه الكثيرات كان غزل جميل بدوياً متوفراً على محبوبة واحدة لا يعدوها إلى غيرها فكان قنوعاً من غير زهو ممسكاً من غير جبن .

غزل أبي نواس :

لاحظنا من خلال العرض الذي قدمناه للغزل في العصرين الجاهلي والإسلامي أن هذا الغزل كان يسير في ثلاثة تيارات هي : تيار الغزل التقليدي ، وتيار الغزل العفيف أو العذري أو المثالي أو التحليلي وتيار الغزل الصريح أو الحسي أو الإباحي .

أما في العصر العباسي فقد اختلفت صورة الغزل تبعاً للمتغيرات الجديدة التي طرأت على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، حتى وجدنا طه حسين ينفي وجود مدرسة غزلية^(٣) في هذا العصر ، على أنه ربما كان الغزل بالمذكر الذي يعتبر أبو نواس زعيمه أهم ما جد على الغزل في هذا العصر ، في حين كاد يختفي إن لم يكن قد اختفى فعلاً الغزل العذري بمفهومه الإسلامي^(٤) ، هذا بالإضافة إلى نوع طريف من الغزل بالموثوث هو غزل الغلاميات الذي كان أبو نواس زعيمه أيضاً في هذا العصر .

(١) معجم البلدان ، لياقوت (وادي القرى) .

(٢) رسائل الجاحظ ٢/١٠٤ .

(٣) حديث الأربعة لطف حسين ١/٢٩٤ .

(٤) حديث الأربعة لطف حسين ١/٢٩٤ ، وأيضاً ٢/١٠٥ .

غزله في جنان :

يتميز هذا الغزل في كون أبي نواس اقتصر فيه على التشبيب بامرأة واحدة، هي جنان جارية آل عبدالوهاب الثقفي المحدث . وكانت تربط أبا نواس بهذه الأسرة علاقة صداقة عن طريق محمد بن مناذر الشاعر رفيق الصبا لأبي نواس . والذي كانت له صحبة معروفة بعبدالمجيد الثقفي بن عبدالوهاب الثقفي^(١) .

أما «جنان» فكانت شابة على قسط وافر من الجمال، عاقلة ظريفة أديبة، تعرف الأخبار وتروي الأشعار^(٢) وهكذا فتنت أبا نواس عن نفسه، حتى أنه حين رآها لأول مرة بالمربد، أخذ يطيل التحديق إليها، حتى لفت إليه نظر مَنْ كان معه من أصحابه فقال له :
خرجت عن حدك الذي كنت تنسب إليه يا أبا نواس يعني من حب الغلمان إلى حب النسوان^(٣) .

وكانت نتيجة الصدمة الأولى مقطوعة من الشعر تمثل حالة من الذهول والحيرة وقد بلغ إعجابه بجنان أن رفعها فوق حد البشر لولا ما هي عليه من صورة الإنسان حتى حق لها الاستبداد بالقلوب تقطف من ثمار حبها ما شاء لها أن تقطف :

إني صرفتُ الهوى إلى قمرٍ لا يتحدَّى العيونَ بالنظرِ^(٤)
إذا تأملتَه تعاضمَكَ الإي قرأُ في أنه من البشرِ
ثم يعودُ الإنكارُ معرفةً منك إذا قستَه إلى الصُورِ
مباحةً ساحةً القلوبِ لهُ يأخذُ منها أطايبَ الثمرِ

ولكن جنانا ظلت تمتنع عليه وتصدده كلما ازداد هو إلحاحاً في طلبها بل ربما شتمته وسبته فلا يزيد السب والشتم إلا إصراراً، وكأنما امتناعها عليه كان يهيج من شغفه بها ورغبته في حب تملكها . على أن هناك خبراً يرويه ابن منظور عن جنان وهو أنها كانت (تحب النساء وتميل إليهن)^(٥) أي أنها كانت شاذة كأبي نواس من ميل كل واحد منهما لجنسه ولكني لا أظن ذلك إذ لو كانت كذلك لاختلف سلوكها مع أبي نواس اختلافاً بيناً عما عرفنا عنها من التزام وتعفف حتى أنها

(١) الأغاني ١٠٩/١٨ ط . الثقافة .

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٧٨/١ .

(٢) الأغاني ٤٢٣/٢ ط . الثقافة .

(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٧٩/١ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٤٠ ط . الغزالي .

اشترطت عليه حين عرضت عليها مولاتها أن تهجها لأبي نواس أن لا يلوط ولكنه لم يقبل وفي ذلك يقول:

يُشَارِطُنِي الْحَبِيبُ عَلَى الشَّرْوَطِ وَلَسْتُ بِمَا يُشَارِطُ بِالسُّخُوطِ^(١)
أرى ترك اللواط عليّ عاراً لأنني واحدٌ من قومِ لوطِ

ولو كانت جنان شاذة كأبي نواس لما فجرت في قلبه نحواً من خمسين قصيدة ومقطوعة من الشعر الرائق الذي يغلب عليه التسامي والعفة، ثم لما كان هذا الإلحاح منه والإعراض منها إلى درجة احتقاره وشمته، والمهم أن جناناً أصبحت شغل أبي نواس الدائم، لا يكف عن ذكرها حتى صارت سيرته معها حديث الناس في البصرة:

أما يفنى حديثك عن جنانٍ ولا تبقي على هذا اللسان^(٢)
أكل الدهر قلت لها وقالتُ فكم هذا أما هذا بفان

وكذلك كان الشعراء العذريون في أحاديثهم وأشعارهم والفرق بينهم وبين أبي نواس أن العذريين كانوا أعفاء في القول والفعل وعاش الواحد منهم يتغنى بحب امرأة واحدة لتنتهي حياته بفجعة إما هائماً مجنوناً أو صريعاً. أما أبو نواس فلم يكن عفيفاً في القول ولا الفعل لأنه ظل مع حبه لجنان يمارس انحرافاتة حتى إذا أتحت له فرصة الظفر بجنان لم يتوان عن اهتبالها كقوله حين التقى بها وهي تقبل الحجر الأسود:

وعاشقين التفأ خداهما عند التثام الحجر الأسود^(٣)
فاشتفياً من غير أن يائماً كأنما كانا على موعدي
لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسندِ

ولكن ذلك لا يمنع من القول أن في غزل أبي نواس ملامح عذرية نلمسها في سلوكه أحياناً، من ذلك أنه كان إذا ساقته المصادفة للاجتماع بجنان، تملكه الحصر والعبي فلا يبين، مع حرصه على رؤيتها وتتبع أثرها حتى كان يسبب لها الحرج إلى الدرجة التي كاد فيها أن يلين قلبها له:

يا ذا الذي عن جنانٍ ظل يُخبرني بالله قل وأعد يا طيبَ الخبر^(٤)
قال: اشتكتك، وقالت: ما بليتُ به أراه من حيثما أقبلتُ في أثرِي

(١) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ١/١٨٩.

(٢) ديوان أبي نواس ٤/١٢٠ تحقيق غريغور شولر.

(٣) المصدر السابق نفسه ٤/٤٢.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٢٤٨ ط. الغزالي.

وَتَعْمَلُ الطَّرْفَ نَحْوِي إِنْ مَرَرْتُ بِهِ
وَأَنْ وَقَفْتُ لَهُ كَيْمَا يُكَلِّمُنِي
مَا زَالَ يَفْعَلُ فِي هَذَا وَيُدْمِنُهُ
حَتَّى لِيَخْجَلَنِي مِنْ حِدَّةِ النَّظْرِ
فِي الْمَوْضِعِ الْخُلُولِمْ يَنْطِقُ مِنَ الْحَصْرِ
حَتَّى لَقَدْ صَارَ مِنْ هَمِّي وَمِنْ وَطْرِي
أَلَيْسَ فِي قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ: «وَأِنْ وَقَفْتُ لَهُ . . .» شَبَهَ مِنْ بَيْتِ جَمِيلٍ فِي بَشِيئَةٍ:

يَمُوتُ الْهَوَى مَنِي إِذَا مَا لَقِيَتْهَا وَيَحْيَا إِذَا فَارَقَتْهَا فَيَعُودُ^(١)

ومن شدة تعلقه بجنان، نراه يقتفي أثرها حاجاً حين سمع أنها أزمعت الحج من غير سابق نية له على الحج أملاً في الاجتماع بها هناك^(٢):

أَلَمْ تَرِ أَنْنِي أَفْنَيْتُ عَمْرِي بِمَطْلَبِهَا، وَمَطْلَبُهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَبَباً إِلَيْهَا يُقَرِّبُنِي، وَأَعَيْتُنِي الْأُمُورُ
حَجَّجْتُ، وَقَلْتُ: قَدْ حَجَّجْتُ جِنَانُ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

وهناك تشف نفسه وتصفو أحاسيسه فإذا به ينشد مقطوعة من الشعر الصوفي أدخلها النقاد في باب الزهد قبل أوان زهده وهي التلبية التي يرددها كثير من المنشدين الدينيين في مختلف أقطار العالم الإسلامي وفيها يقول:

الهِنَا، مَا أَعْدَلَكُ مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكُ
لَبَّيْكَ قَدْ لَبَّيْتُ لَكَ لَبَّيْكَ إِنْ الْحَمْدَ لَكَ

يذكر ابن منظور أن أبا نواس حين جعل يلبي ويطلب في صوته اجتمع به كل من سمعه^(٣). والظاهر أن أبا نواس حاول أن يصلح من أمره ليكون على وفاق مع جنان فيما اشترطت عليه من الإقلاع عن مبادئه^(٤). كما يظهر ذلك في قصيدته التالية:

لَوْلَا حِذَارِي مِنْ جِنَانِ لَخَلَعْتُ عَنْ رَأْسِي عَنَانِي^(٥)
وَرَكِبْتُ مَا أَهْوَى وَكَسَمَ أَجْفُو مَقَالَةَ مِنْ نَهَائِي
وَخَرَجْتُ أَخْبِطُ سَادِرًا لَمْ أَغْنَنَّ عَنْ حُبِّ الْغَوَانِي

(١) ديوان جميل بشيئة ص ٦٧.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٢/١.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٢/١.

(٤) أبو نواس عالم آخر «لدعبل» ص ٦٦.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٢٨٩ ط. الغزالي.

إذن هي جنان التي أصبح يرهبها إذا ما حاول الذهاب في فسقه وفجوره . ولكنه يختم القصيدة بأبيات تشعر بياسه وتشاؤمه بعد أن فشل في تحقيق طموحه فمضى متعزياً بالماهي والملذات :

ولقد أقولُ لمنْ دعا هُ من الهوى ما قد دعاني
أبلغُ هوائك من الغنا والكأسِ وأغن عن الزمانِ
لا يشغلنك غيرُ ما تهوى فكلُ العيشِ فإن
ودعِ الهوانَ لأهله إذ زلتَ عن دارِ الهوانِ

وهكذا فلم يفتر له حماس في طلبها فظل يطاردها أينما ثقفها رغم ما بينهما من جدر صفيقة ، ورغم ما ألحق به هذا الحب من ضيم وضير، حتى لم يكد يبقى منه إلا الأقل احتسبه في الله مصراً على طلبها ما دام فيه عرق ينبض بالحياة غير سال ولا يائس :

كما لا ينقضي الأرب كذا لا يفتر الطلبُ^(١)
قلبت لحاجتي الدنيا فليس لوصلها سبب
أميتت دونها الأطمأ عُ حألت دونها الحجبُ
رأيتُ البائسين سوا يَ قد يسألون ما طلبوا
ولم يُبقِ الهوى إلا أقلِّي وهو مُحْتَسَبُ
سوى أني إلى الحيوا نِ بالحركاتِ أنتَسِبُ

لقد أدخلت «جنان» أبا نواس في حالة جديدة من الصراع النفسي العنيف حين وضعت أمام اختيار صعب بين الطموح والواقع ، بين الرغبة المحمومة التي تحلق بصاحبها إلى السماء وبين المغريات الكبيرة التي تكبل جناحيه عن التحليق إذ لم يستطع الجمع بين النقيضين : جنان والواقع . وهكذا مثلت جنان له الطموح والأمل ، ومثل الواقع المغريات والمبادل ، وعلة أبي نواس أنه أراد الجمع بينهما ، فانحاز عنه الأمل والطموح لتكون النتيجة الطبيعية بعد الإبقاء على مبادل الواقع ومغرياته اليأس من الطموح حتى أصبح يدور في حلقة مفرغة ومن يقارن بين غزله في جنان وبين غزله في غيرها من الجواري يلاحظ أنه في الأول جاد صادق قليل الإنجاز والمناجزة ، وفي الثاني كثير المناجزة والإنجاز بمعنى إن الدارس يحس أن أبا نواس كان كثيراً ما يصل إلى أغراضه في غزلياته إما بالرغبة المحضه حين توافقه رغبة أخرى للطرف الأخر، وإما بالقهر والاحتيال والكد

(١) ديوان أبي نواس ٢٧/٤ تحقيق غريغور شولر.

بل ربما كان غزله في غير جنان من النساء والغلمان أيضاً يشوبه غير قليل من العبث واللهو في حين أورثه غزله في جنان الجاد الهم والسخط بل الحرمان والشكوى.

وكانت «جنان» كثيراً ما تعدّه مخلفة وعدها متعللة بأسباب واهية فيجأ بالشكوى ساخطاً:

جفن عيني قد كاد يـ سقط من طولٍ ما اختلج^(١)
وفؤادي من حرٍّ حُبٍّ كِ والهجرِ قد نضج
خبريني - فدتكِ نفي سي وأهلي - متى الفرج
كان ميعادنا خرو ج زيادٍ وقد خرج
أنت من قتلِ عائذٍ بكِ في أضيقي الحرج

عد أبو نواس إخلاف الوعد مثل جريمة القتل، فهو يحمل «جناناً» وزر قتله . . . ؟

وكما كان هذا الحب شاغل أبي نواس في حياته كان هاجسه في حلمه فكان إذا توهم رؤية جنان في منامه وساد الوثام بينهما وسعدا في وصال بعد قطيعة وهجران يفيق على الحقيقة المرة وهي أن الأحلام غرارة:

إذا التقى في النوم طيفانا عاد لنا الوصلُ كما كانا^(٢)
يا قرة العينين ما بالنا نشقى ويلتدُّ خيالنا
لوشيت إذ احسنت لي في الكرى أتممت إحسانك يقظانا
يا عاشقين اضطلحا في الكرى وأصبحا غضبي وغضبانا
كذلك الأحلام غدازة ورؤما تصدق أحيانا

ولكن أبا نواس يعود ليوهم نفسه بصدق فإسالة الأحلام، فها هي «جنان» تسأله الصلح في النوم كما سأله الوصال في اليقظة، ولكن طيفه يرفض الصلح، تماماً كما كانت تفعل هي معه في اليقظة، وبهذه العملية المعقدة للطف التي هي من صنع الشعر وهو من «عقد السحر»^(٣) يكون أبو نواس قد حقق لنفسه موازنة جمعت بين اليقظة والحلم ليمتد في حبه من اليقظة إلى الحلم أو العكس وهكذا كان الطيف مزدوج المهمة إلى الحد الذي جعله أبو نواس كفيئاً عدلاً لصورتَي حبه

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣٠ ط. الغزالي .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٤٤ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٦٤ ط. الغزالي .

في سرائها وضرائها:

دَسَّتْ لَهُ طَيْفُهَا كَيْمًا تُصَالِحُهُ فِي النُّومِ حِينَ تَأْتِي الصُّلْحَ يَقْطَانًا^(١)
فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ طَيْفِي طَيْفُهَا فَرِحًا وَلَا رَثَى لَتَشَكُّيهِ وَلَا لِأَنَا
حَسِبْتُ أَنْ خِيَالِي لَا يَكُونُ لَمَّا أَكُونُ مِنْ أَجْلِهِ غُضْبَانُ غُضْبَانَا
جِنَانٌ لَا تَسْأَلِينِي الصُّلْحَ مَسْرَعَةً فَلَمْ يَكُنْ هَيْنًا مِنْكَ الَّذِي كَانَا

على أن أبا نواس بلغ الغاية في التوفيق بين حالين رأى فيهما جنان في اليقظة لا في الحلم:
حال سراء، وحال ضراء وقد تحمل إحدى المقطوعتين اللتين قالهما في هاتين المناسبتين أنانية
المحب وغرور الشاعر. أما عن مناسبة هذه المقطوعة، فهي كما جاء في الأخبار أن أبا نواس رأى
جناناً في مأتم وهي تلطم وجهها بيدها المخضبة فراعته المنظر فقال:

يَا قَمْرًا أَبْرَزُهُ مَاتِمٌ يَنْدُبُ شَجْوًا بَيْنَ أَتْرَابِ^(٢)
يَيْكِي فَيُذْرِي الدَّرَّ مِنْ نَرْجَسٍ وَيَلْطَمُ الْوَرْدَ بَعْنَابِ

وفي هذين البيتين محاولة من الشاعر لتجاوز مأساة الموت بالحب والحياة، سواء أكان بواسطة
التصوير المباشر أم بالإيحاء.

على أن أبا نواس لا يلبث طويلاً حتى يصرف محبوبته عن الأسى على ميت وافاه أجله المحتوم
إلى قبيل هجرها وإعراضها عنه وها هو بالباب ينشد الحياة والحب في الموت والأسى. بهذه البراعة
الشعرية المعهودة حول أبو نواس عن طريق المقارنة الموقف المأساوي إلى شبيهه بالملهاة بكل ما
فيها من همجية وقسوة واقتحام للمشاعر الإنسانية:

لَا تَبْكُ مَيْتًا حَلَّ فِي حَفْرَةٍ وَأَبْكُ قَتِيلًا لَكَ بِالْبَابِ^(٣)
أَبْرَزُهُ الْمَاتِمَ لِي كَارِهًا بَرِغْمِ دَايَاتٍ وَحَجَابِ
لَا زَالَ مَوْتًا دَابَّ أَصْحَابَهُ وَلَمْ تَزَلْ رُؤْيَتَهُ دَابِي

وقد بلغ إعجاب القدماء بهذه المقطوعة أن عدوا أبا نواس أشعر الناس بسببها^(٤).

وقد كرر أبو نواس نفس الموقف مع شيء من التعديل والتحوير فيها هو يحتال حتى يرى «جناناً»
في مأتم آخر وقد حسرت عن وجهها ليذهل كل من في المأتم حتى أنسوا ما هم فيه من أسى وحزن

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٩٠.

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٨٣.

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ص ٢٣ و ص ١١٩.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٩٠.

مفتونين بحسن جنان وجمال صورتها .

يا منسي الماتم أشجانهم
حلت قناع الوشى عن صورة
فاستفتنتهن بتمثالها
حق لذاك الوجه أن يزدهي
لما أتاهم في المعزينا^(١)
ألبسها الله التحاسينا
فهن للتكليف يكيينا
عن حزنه من كان محزوننا

ومرة أخرى تشهد «جنان» عرساً لينصرف كل من في المجلس إليها حين حسبوها العروس مما سبب ضيقاً شديداً لأهل العروس عادين حضورها داهية حلت بهم عازين ذلك إلى مولاة «جنان» «عمارة» زوجة عبدالرحمن الثقفي :

شهدت جلوة العروس جنان
حسبوها العروس حين رأوها
قال أهل العروس حين رأوها
فاستمالت بحسنها النظارة^(٢)
فإليها دون العروس الإشارة
ما دهانا بها سوى عمارة

واضح أن موقف الشاعر من «جنان» في الحالين المتناقضين واحد، هو موقف المحب الواثق بكل غروره وأنانيته . ففي الموقف الأول سما بمحبوته على الآلام ، ليراها كما يشتهي بغض النظر عن آلام الآخرين وفي المرة الأخرى انتزع الإعجاب لها ممن كان أحق بهذا الإعجاب غير آبه لما أصاب أهل العروس من غبن وخيبة .

هذا، وتتجلى قوة تأثير «جنان» في أبي نواس في جانبين : الأول، أنها طهرت غزله فيها من كثير من الأوصار والابتذال والإباحية التي كانت تخالط تغزله في غيرها من الجواري ، الثاني ، أنها أعطت لشعره فيها أبعاداً فلسفية وأفكاراً تأملية قد لا نجد في ما قاله في غيرها . وهكذا وجدنا النقاد يستدلون ببعض غزله في جنان على قدراته العقلية وممكناته الثقافية كما قدمنا في القسم الأول من هذه الدراسة في حديثنا عن ثقافة الشاعر، من ذلك المقطوعة الجميلة التالية :

وذات خد مؤرد فتانة المتجرد^(٣)
تأمل الناس فيها محاسناً ليس تنفد
الحسن في كل جزء منها معاد مردد

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٩١/١ .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٧١ ط . آصاف .

(٣) المصدر السابق نفسه ١٨٤/١ .

فبعضه في انتهاءٍ وبعضه يتولّد
 وكلما عدت فيه يكون بالعود أحمد
 فاشرب على وجه بدرٍ رياناً غير معربد.

ولعله لأول مرة نسمع شاعراً يصف جمال حبيته بالهدوء والاطمئنان وبأنه جمال غير معربد، وهو الجمال الذي يظل يتجدد في عيني الرائي بمحاسن لا تنفد، إن تناهى بعضها تولد البعض الآخر ليكون أجمل في معاودة النظر إليه . وكان أبو نواس يحل هذه المقطوعة مكانة خاصة من نفسه حتى جعلها في مقدمة شعره كله^(١).

ومنها أيضاً المقطوعة التالية من الغزل الرقيق في جنان:

رسم الكرى بين الجفونٍ محيلٌ عفى عليه بكاءً عليك طويلٌ^(٢)
 يا ناظراً ما أقلعت لحظاتهُ حتى تشحط بينهن قليلٌ
 أحللت من قلبي هواكٍ محلّةً ما حلها المشروب والمأكولُ
 بكمالٍ صورتك التي في مثلها يتحير التشبيه والتّمثيلُ
 فوق القصيرة والطويلة فوقها دون السمين ودونها المهزولُ

في هذه المقطوعة يعمد أبو نواس إلى ضرب من التجسيد والتجريد معاً، تجسيد المجرد وتجريد المجسد معقداً في صنعة الشعرية بل نظره الشعري وذلك حين حور في الرسم «المجسد» بأن ألحقه بالمجرد الذي هو الكرى لأنه حالة لا وجود له قائماً بذاته بأن جعل لهذه الحالة التي تعترى الإنسان وجوداً مادياً عن طريق الرسم بالقران ثم تجاوز هذا إلى ما هو أكثر تجريداً للمجسم، وأكثر تكثيفاً للمجرد بأن جعل رسم الكرى تعفى عليه الدموع فتمحو آثاره كما عفت الأمطار والرياح على آثار رسوم الديار فدرستها يعني أن بكاءه عفى على نوم عينه بين جفونه حتى أنحلّه وأضناه فصار كربع بال محيل لا يزور عينه النوم بعد فراق صاحبه . ثم لا يلبث طويلاً حتى يفتح بوجدانٍ متأمل أو بفكر منفعل ليصور لنا ارتداد المحب الواله بنظراته المتواصلة المغروسة في كيان المحبوبة وقد سقط صريعاً مضرجاً بدمائه فقد حل هذا الحب من قلب العاشق المتميم محلاً ما بعده ولا قبله محل بتمثيل الحبيب بكمال صورته المعتدلة القوام والشكل ، الوسيطة القد والهيئة على نسق يعز تشبيهه بشبيه أو تمثيله بمثال .

(١) ديوان أبي نواس ٤٢/٣ تحقيق غريغور شولر .

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٥٥ ط . الغزالي .

وقد تركت هذه المقطوعة أصداء متباينة لدى الأقدمين فالعتابي يعتبر أبا نواس قد سلك فيها وادياً ما سلكه غيره^(١) كذلك «ابن الأعرابي» الذي كان يعيب أبا نواس قال عن هذا الشعر حين تلي عليه (فوالله ما سمعت أجود منه لتقديم ولا لمحدث . . .)^(٢).

وفي مرو اختلف اثنان من المتأدبين حول نفس المقطوعة وحين احتكما إلى مسلم بن الوليد أبي حسده لأبي نواس إلا أن يجانبه الصواب والرأي السديد^(٣).

هذا، وهناك جانب من غزل أبي نواس في جنان لم نشر إليه حتى الآن وهو الرسول الذي يعد أحد أركان غزله الهامة . وكان لهذا الرسول في علاقة الشاعر بجنان دور واضح لا يمكن إغفاله حتى جاءت رسائله إليها تحمل طابع تلك العلاقة في تردها بين المد والجزر أو بين السخط والرضى ، كما ترجمت عن إلحاحه الدؤوب في طلبها أيضاً رغم إعراضها عنه حتى شكته لمولاها فسيبه وأشهره وحين أبلغه الرسول بسبها له أنشأ يقول مستهيناً بالسب والشتم :

ما عصمتي من شتم أحبائي	أعظم من شتمهم ما بي ^(٤)
لو قست بالشتم بلائي به	أفنيت فيه جيش حسابي
يا حب إنني والذي مسني	منك بأسقام وأوصاب
لموقع الهجران بين الحشا	أنقذ من رشتي بنشاب

وربما أسعده الرسول بخبر سبها له وهو الذي كان إذا مسه أحد بأذى ضير هجاءه ولم يحتشم حتى إذا كان أباه^(٥) وعن أبي حاتم قال : (بلغ أبا نواس أن جنان سبته وقالت : ويلي على المخنث المتكذب في حبه فقال^(٦) :

جنان تسبني ذكرت بخير	وتزعم أنني رجل خنيث
وأن مودتي كذب ومين	وأنني للذي أهوى نشوث
وليس كذا ولا رداً عليها	ولكن الملول هو النكوث
ولي كلف ينزعني إليها	وشوق بين أضلاعي خنيث

(١) العمدة ١٢٢/٢ ، وأخبار أبي نواس لابن منظور ٦٦/١ .

(٢) زهر الآداب ٢٤١/١ .

(٣) الموضع للمرزباني ص ٤٣٩ . (٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨١/١ .

(٥) المصدر السابق نفسه ٤٧/١ . (٦) ديوان أبي نواس ٣٥/٤ تحقيق غريغور شولر .

رَأَتْ كَلْفِي بِهَا وَدَوَامَ عَهْدِي فَمَلَّتْنِي كَذَا كَانَ الْحَدِيثُ

وربما استغنى برؤية الرسول إذا عز عليه رؤية جنان حتى أنه ليجد رسوله بعد عودته من عندها وقد اكتسى طلعة أبهى ونظرة أجمل:

إِنْ تَشَقَّ عَيْنِي بِهَا فَقَدْ سَعِدْتُ عَيْنُ رَسُولِي وَفَزْتُ بِالْخَبْرِ^(١)
فَكَلَّمَا جَاءَنِي الرَّسُولُ لَهَا رَدَدْتُ شَوْقاً فِي طَرْفِهِ نَظْرِي
تَظْهَرُ فِي طَرْفِهِ مَحَاسِنُهَا قَدْ أَثَرْتُ فِيهِ أَحْسَنَ الْأَثْرِ
خُذْ مَقَلَّتِي يَا رَسُولَ عَارِيَّةً فَاَنْظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَيَّ بِبَصْرِي

وربما زعم لجنان، استدراراً لعطفها وتجنباً لغضبها، إن دموعه كانت تنسكب على كتابته وهو يخط إليها رسائله مما يضطره إلى المحو والتغيير تأنقاً وتكلفاً للإجادة:

غَضِبْتُ لِمَحْوِ فِي الْكِتَابِ كَثِيرٍ قَالَتْ: أَرَادَ خِيَانَتِي وَغُرُورِي^(٢)
كُتِبَ الْكِتَابُ عَلَيَّ خِلَافَ ضَمِيرِهِ فَالْمَحْوُ فِيهِ لِكثْرَةِ التَّغْيِيرِ
لَا وَالَّذِي إِنْ شَاءَ صَبَّرْنَا مَعَا فَأَدَالَ مِنْ حَزَنِ هُنَاكَ سُورِي
مَا كَانَ ذَاكَ لِمَا أَتَى مِنْ قَوْلِهَا مِني وَلَا لِلشُّهُوِ وَالتَّقْصِيرِ
كُتِبَتْ يَمِينِي وَالدَّمُوعُ سَوَاكِبُ صِفَّةَ اللِّسَانِ بِمَا يُجِنُّ ضَمِيرِي
فَالْمَحْوُ مِنْ قَبْلِ الدَّمُوعِ وَإِنَّمَا تَجْرِي دَمُوعَ الْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ

وفي ختام حديثنا عن تغزل أبي نواس في جنان نشير إلى موقف طريف له مع قاضي البصرة محمد بن حفص بن عمر التميمي (وهو أبو ابن عائشة) حين رآه يكلم امرأة في الطريق العام فلامه على ذلك فما كان من أبي نواس إلا أن أرسل إليه رقعة فيها المقطوعة التالية^(٣):

إِن الَّتِي أَبْصَرْتَهَا سَحْرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ
أَدَّتْ إِلَيَّ رِسَالَةً كَادَتْ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ
مَنْ سَاحَرَ الْعَيْنَيْنِ يَجْذِبُ خَصْرَهُ رَدْفٌ ثَقِيلُ
فَلَوْ إِنْ أَدْنَكَ بَيْنَنَا حَتَّى تَسْمَعَ مَا نَقُولُ

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٧٢ ط. الغزالي .

(٢) المصدر السابق نفسه ٥٥/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٨٦، والأغاني ٢٠/٦٥ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب .

لرأيت ما استقبحتهُ من أمرنا وهو الجميلُ

من هذا العرض لغزله في جنان نتبين أن هذا الغزل كان شاذاً في حياته شذوذ العباس بن الأحنف في عصره. ولكنه متميز عن بقية أنواع غزله في طهره ونقائه حين سار في وجهة لم يطرقها أبو نواس مرة أخرى، فكأنه ما جاء إلا ليستكمل به أبو نواس جميع أنواع الغزل المعروفة في زمانه. غزله في غير جنان من الجوّاري والقيان :

إذا استبعدنا ما قاله أبو نواس من غزل في جنان فإنه لا يبقى لنا من تشبيهه بالنساء ما يساوي الثلث أو أقل من الثلث مما قاله في الغلمان. وهذه حقيقة يقف عليها كل من يقوم بمقارنة ما قاله في الغلمان بما قاله في الجوّاري من غير جنان. وهي مقارنة تنفي أيضاً ما أشيع عن أبي نواس من أنه كان زير نساء رغم تشبيهه بالغلمان^(١) فلعل الأولى أن نقول إنه كان زير غلمان، برغم الائنتي عشرة امرأة التي صرح بأسمائهن في شعره وهن :

جنان - عنان - حسن - سمجة - عبدة - رحمة - منى - مكنون - غريب - دنانير - قصرية -

نبات^(٢)

وبعد الاستقصاء عثرنا على جملة أخرى من الأسماء الصريحة لجوّارٍ ذكرهن أبو نواس في شعره وهن : نرجس - معشوق - الذلّفا - منيا - درة - فاتك - محببة - هذا عدا كثيرات لم يردن بأسمائهن الصريحة وتذكرهن المصادر بالنسبة إلى الموطن كقولهم «قينة بصرية»^(٣)، أو الذوين والموالي مثل «جارية آل المهلب»^(٤)، أو بالصفة الاجتماعية اكتفاءً بلفظ «قينه»^(٥) وربما وصفت الواحدة منهن بمهنتها كقولهم «ساقية»^(٦).

هذا، ويلاحظ أن الكثير من هؤلاء الجوّاري كن مملوكات للأمرء وللأشراف وكبار رجال الدولة ممن اتصل بهم أبو نواس فعنان جارية الناطفي، التي كانت تُعدّ من أشعر الناس^(٧) كانت على اتصال برجال الدولة كالبرامكة وغيرهم^(٨) حتى أن الرشيد همّ بشرائها لولا شعر فاضح لأبي

(١) ديوان أبي نواس ٨/٤ تحقيق غريغور شولر. (٢) المصدر السابق نفسه ١/٤.

(٣) ديوان أبي نواس ٥٤/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٤) ديوان أبي نواس ٨٨/١ تحقيق فاجنر، وأخبار أبي نواس لابن منظور ١٩٦/١.

(٥) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص ٩١، وديوان أبي نواس ٩٠/١ تحقيق فاجنر.

(٦) أخبار أبي نواس لابن منظور ٩/٢. (٧) العقد الفريد ٥٩/٦.

(٨) طبقات الشعراء، لابن المعتز ص ٤٢١.

نواس فيها^(١) وكانت «حسن» جارية جعفر بن سليمان^(٢). و «معشوق» جارية لأسماء بنت المهدي^(٣). و «الذلفاء» جارية للبرامكة وكانت شاعرة تشبب بالرشيد^(٤). أما «منيا» فكانت وصيفة للفضل بن سهل بن نوبخت^(٥) وساقيته^(٦). كما كانت «فاتك» جارية لزهير بن المسيب صاحب شرطة الخلافة^(٧) وربما كانت «دنانير» جارية البرامكة^(٨)، والتي كانت قبل أن يشتريها البرامكة جارية للشاعر محمد بن كناسة^(٩) من أشهر هؤلاء الجوّاري كشاعرة وموسيقية حتى أنها أثارت حفيظة زبيدة زوج الرشيد عليها لما كان يديه من إعجاب بها وحرصه على سماعها في قصور البرامكة^(١٠)

والحقيقة أن الجوّاري اللواتي شبب بهن أبو نواس لا يكاد يحصرهن عد لأننا كثيراً ما نقع على شعر له في بعض الجوّاري دون التصريح باسم واحدة منهن أو دون الإشارة إليها بأية صفة أو نسبة أو لقب عدا لفظ جارية أو قينة.

وهكذا فرضت الجوّاري سلطانها الأخلاقي والاجتماعي والثقافي على غزل شاعرنا، فإذا بنا أمام ظاهرة جديدة لا عهد لنا بها من قبل وهي هذه المناجزات الغزلية في صورة مطارحات شعرية يقف فيها كل من الشاعر والجارية من الآخر موقف الند للند في صراحة وحرية تامتين من غير ما أدنى إحساس بحياء أو تقدير لأي اعتبار أخلاقي أو اجتماعي، وأما أن أبا نواس لم يكن مجدوداً من النساء فلعل هذا ما كان شأنه أيضاً مع الغلمان الذين حلوا محل الجوّاري كما حلت الجوّاري محل الحرائر من النساء. وذلك أن - الغلمان كانوا يشبهون الجوّاري في المظهر والغاية ولذلك صرنا نعرف لأول مرة في تاريخنا - وكما أكد لنا أبو نواس نفسه هذه الحقيقة - الجارية الغلامية والغلام المؤنث وكذلك أصبح التوحد في الحب، أو - الإخلاص فيه ضرباً من الشذوذ عن القاعدة وليس

(١) ديوان أبي نواس ٨٣/١ تحقيق فاجنر.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٢/١.

(٣) ديوان أبي نواس ٩٠/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢١٤/١، ديوان أبي نواس ٨٩/١ بتحقيق فاجنر.

(٥) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢٤/٢.

(٦) ديوان أبي نواس ١٠٧/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٧) المصدر السابق نفسه ٦٨/٤.

(٨) تاريخ الطبري ٢٩٧/٨. (٩) الأغاني ١٣/٣٤٠ وما بعدها ط. الثقافة.

(١٠) الأغاني ١٨/٦٧ ط. الدار، و ١٣/٣٤٨ وما بعدها ط. الثقافة.

هو من سمة العصر فأبو نواس يشكو من كثرة عشاق صاحبه التي تتظاهر بالنسك وتبالغ في الترحاب به^(١):

وَمُظْهِرَةَ لَخَلِقَ اللهُ نُسْكََا وتلقاني بَدَلٍ وابتسام^(٢)
أَتَيْتُ فَوَادَهَا أَشْكَو إِلَيْهِ فلم أخلُصُ إليه من الزَّحَامِ
فِيَا مَنْ لَيْسَ يَكْفِيهَا خَلِيلُ ولا ألفا خليلٍ كُلَّ عامٍ
أَظُنُّكَ مِنْ بَقِيَةِ قَوْمِ مُوسَى فهم لا يَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامِ

يكاد أبو نواس يترجم عن الجاحظ وصفه لأخلاق الجواري حين قال: (إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها، لأنها مكتسبة ومجولة على نصب الحبال والشرك للمتربطين ليقتمحوا في أنشوطتها)^(٣).

إن مثل هذه الجارية كانت تقف ندأ للرجل لما كانت تتمتع به من مواهب ثقافية وحرية اجتماعية سواء في التعبير الصريح أم الفعل الجريء وهكذا كانت علاقة أبي نواس بهذا الصنف من النساء من نوع جديد غريب لا نستطيع فيها أن نهمل وجود الرجل، ولا أن نتجاهل الأنثى ولكن مع شيء من التغيير والتحوير اللذين طرأ على حياة الأنثى قرباها كثيراً من الرجل، فكانت تلك المناجزات أو المطارحات الشعرية تعبيراً عن العلاقة الجديدة الغريبة. وهنا لا بد من النص على أن معظم الجواري اللواتي سماهن لنا أبو نواس في شعره أو سمتهن المصادر القديمة كن من الشواعر وربما كانت «عنان» جارية الناطفي أشهر هؤلاء الجواري حتى عُدت أشهر الناس في زمانها^(٤) وكان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتتصف منهم^(٥) يذكر «ابن عبد ربه» أن أبا نواس جلس إلى عنان فقالت: كيف علمك وتقطيع الشعر يا حسن؟ قال: جيد، قالت: قَطِّعْ هَذَا الْبَيْتَ:

«أَكَلْتُ الْخَرْدَلِ الشَّامِي فِي صَفْحَةِ خَبَازٍ»^(٦) فلما ذهب يقطعها ضحكت به وأضحكت فأمسك عنها ثم عاد سائلاً لها فقال: كيف تقطعين هذا البيت؟

حَوَّلُوا عَنَّا كَنَيْسَتَكُمْ يَا بَنِي حَمَالَةِ الْحَطْبِ

(١) العقد الفريد ٦/٦٤ . (٢) ديوان أبي نواس ص ٥٤٢ ط . الغزالي .

(٣) رسائل الجاحظ ١٧١/٢ «كتاب القيان» . (٤) العقد الفريد ٦/٥٩ .

(٥) الأغاني ٢٢/٥٢١ ط . الثقافة . (٦) العقد الفريد ٦/٦٠ ، وديوان أبي نواس ٨٢/١ بتحقيق فاجنر .

فلما ذهبت تقطعه ضحك أبو نواس . . !

وقد لا تخلو هذه المطارحات من شعر رقيق جميل ففي يوم (دخل أبو نواس على الناطفي وعنان جالسة تبكي وخذها على رزة باب فقال أبو نواس:

بَكَتْ عَنانُ فَجَرَى دَمْعُهَا كَاللُّؤْلُؤِ الْمُرْفُضِ مِنْ خَيْطِهِ
ويروى: أن عنان أسبلت دمعها.

فقال عنان والعبرة في حلقتها:

فَلَيْتَ مَنْ يَضْرِبُهَا ظالِمًا تَجِفُّ يُمْنَاهُ عَلَى سَوَاطِينِهِ^(١)

ودخل أبو نواس على الناطفي وعنان جالسة تبكي وقد كان الناطفي ضربها فأومأ إلى أبي نواس أن يحركها بشيء فقال:

عَنانُ لو جَدتِ لي فإني من عُمري في أَمَنِ الرُّسُولِ بِمَا
فردت عليه عنان:

فإن تَمادَى ولا تَماديتَ في قَطْعِكَ حَبْلِي أَكُنْ كَمَنْ خَتَمًا
فرد عليها أبو نواس فقال:

عَلَقْتُ مَنْ لو أَتَى على أَنفِ سِ الْماضِينَ وَالغابِرِينَ ما نَدَمًا
فردت عليه:

لو نَظَرْتُ عَينُها إلى حَجَرٍ وُلِّدَ فيهِ فُتورُها سَقَمًا^(٢)

ولعل الموقف الذي لا نستطيع التجاوز عنه هو ما دار بين أبي نواس وعنان حول خاتم كان أبو نواس استبدل به خاتمًا آخر من صديقه أحمد بن خالد. وكانت عنان قد ألقت هذا الخاتم فاتهمت أبا نواس بأنه لا يحبها. وهكذا راح أبو نواس يتوسل إلى صديقه أن يرد إليه الخاتم حتى يبريء ساحته أمام صديقه:

فَدَتِكَ نَفْسِي يا أبا جَعْفَرِ جارِيَةً كَالقَمَرِ الأَزهَرِ^(٣)

(١) المصدر السابق نفسه ٨٠/١.

(٢) الأغاني ٨٨/٢٣ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) المصدر السابق نفسه ٨٩/٢٣.

تعلقتني وتعلقتها
كنتُ وكانت نتهادى الهوى
حنتُ إلى الخاتم مني وقد
فأرسلت فيه فغالطتها
قالت: لقد كان لنا خاتمٌ
لكنه علقُ غيري فقد
كفرتُ بالله وآياته
أوفأتُ بالمخرج من تُهمتي
فأرددُهُ تردد وضلها إنها
فإنني مُتهمٌ عندها

تدل هذه الحكاية اللطيفة على ما كانت تبثه الجوارى من أمثال «عان» من مرح وظرف في المجتمع العباسي إلى جانب ترديهن في أحيان كثيرة في الفاحشة والفجور وكذلك كان غزل أبي نواس فيهن يتردد بين النقاء والتسامي، وبين البهيمية والإباحية.

ومن مقارضات أبي نواس الظريفة مع عنان أيضاً أنه سألها يوماً يوماً طاقة نرجس كانت بيدها فمنعته، فقال لها ما أقبح البخل ويملك فردت عليه: أقبح من البخل عاشق مفلس. عندئذ قال أبو نواس على البديهة الأبيات اللطيفة التالية يترجم بها عن هذه الواقعة العابرة^(١):

قلتُ لها يوماً ومرتُ بنا أترجئةُ في كفها نرجسُ
ما أقبح البُخلِ فجودي لنا منك بما تحيا به الأنفسُ
فاستضحكتُ عجباً فقالت لنا أقبح منه عاشقُ مُفلسُ

وهذه «محبية» جارية محمد بن يحيى بن خالد البرمكي يمتحنها أبو نواس بإلقاء بيت عليها لتجزئه قائلاً:

للحُسنِ فيها صنيعٌ له القلوبُ تُريعٌ^(٢)

(١) ديوان أبي نواس ٨٦/١ تحقيق فاجنر.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٨٩/١ تحقيق فاجنر.

فقال مرة:

أبو نواسٍ خليعٌ له الكلام البديعُ
وواحد الناس طراً له أقرُّ الجميعُ

ومثل ذلك ما كان له مع إحدى جواري آل المهلب التي أرسلت إليه يوماً بوصيفة لها فجمشها أبو نواس فكتبت إليه تعاتبه متهمه إياه بالخيانة والخلاعة:

ليس الفتى الحر الكريم مُجْمِشاً لرسولِ حِبَّةٍ قلبه المرتاحِ
ذاك الخليُّ من الهوى وشروطه وحليفُ كلِّ خلاعةٍ ومُزاحِ
فأجابها أبو نواس مكذباً ما رماه به الرسول زاعماً أن له قلباً واحداً يحبها لا قلبين وأن حياها متملك من هذا القلب حتى لا فضل فيه للاشتغال بغيرها:

زعم الرسول بأنني جَمَشْتُهُ كذب الرسولُ وفالسق الإصباحُ^(١)
إن كنت جمشتُ الرسول فغافصتُ روعي أناملُ قابض الأرواحِ
شغلي بحبك عن سواك وليس لي قلبان مشغولٌ وآخرُ صاحبي
قلبي الذي لم يُبقِ فيه هواكمُ فضلا لتجميشٍ ولا لمُزاحِ
ومن هذه المطارحات ما كانت تتفوق فيه الجواري على أبي نواس صراحةً ومجوناً من ذلك ما يروى من أن أبا نواس كتب إلى قينة يحكي لها قصة حلم جمعهما دون التصريح بالفعل:

إني رأيتك في المنام كأنما أرويتني من ريق فيك البارد^(٢)
وكان كفك في يدي وكأنما بتنا جميعاً في فراشٍ واحدٍ
ثم انبهتُ ومعصمك كلاهما بيدي اليمين وفي شماليك ساعدي

فأجابته القينة مفصلة ما أوجز وموضحة ما اكتفى فيه بالإشارة:

خيراً رأيتُ وكلما عاينته ستنأله مني برغم الحاسدِ
صلُّ من هويت ودع مقالة حاسدِ ليس الحسودُ على الهوى بمساعدِ
يا مَنْ يلوم على الهوى أهل الهوى هل يستطيع صلاح قلب فاسدِ

(١) ديوان أبي نواس ص ٨٨/١.

(٢) نفسه ص ٩٠/١ تحقيق فاجنر.

لم يخلق الرحمان أحسنَ منظراً
متعانقين عليهما حللُ الهوى
من عاشقين على فراشٍ واحدٍ
متوسّدين بمغصمٍ ويساعدٍ

فنبيت أسعدَ عاشقين تعاطياً
حلّو الحديث بلا مخافة راصدٍ

وهكذا هبطت الجوّاري بالغزل من عليائه^(١) حين أصبح تعبيراً مباشراً عن الغريزة النوعية^(٢) لأنه كان غزلاً مصدره إعجاب موقوت أو هو على الأصح شعر مناسبات^(٣) رغم رفته وعذوبته وما قد يكون فيه من براعة المعاني والصنعة الشعرية^(٤) على أن الدلالة الأعمق لهذه المطارحات تكمن في اختفاء المحب الفارس، حين أصبحت المرأة نداءً للرجل رغبة وسعياً وتعبيراً. رغبة فيما كان يرغب الرجل أن يناله، وسعياً فيما كان يصطنعه الرجل من أساليب المكائد والمغامرات وتعبيراً في هذا الشعر الفاضح الذي كانت تتفوق المرأة فيه أحياناً على الرجل. وإذن فهذا الغزل أدل على روح العصر وعلى المرأة البغدادية في العصر العباسي من غزل أبي نواس في جنان الذي كان طابعه العام الحديث عن لواعج الهوى وحرقة الأشواق ولوعة الحرمان والأمل في الوصال. فهذه المناجزات والمطارحات صريحها وعفيفها إحدى ثمرات الحياة الحضريّة الجديدة وهي وليدة علاقات اجتماعية جديدة أحد طرفيها كانت المرأة الجديدة من الجوّاري اللاتي كان منهن الهنديات^(٥) والسنديات والكوفيات والبصريّات والمصريّات والروميّات والحبشيّات والمكيّات والزنجبيّات والتركيّات وتمشياً مع روح العصر رأينا أبا نواس يضيف على محبوبته صفة العالمية أو الأممية ليكون ذلك أجمع لمغريّاته وأشمل لشهوّاته بحيث صوّر لنا تلك الحسناء وكان جميع نساء الأرض قد اجتمعن فيها وبذلك يكون قد سبق اللورد «بايرون» حين تمنى أن تجتمع كل النساء في امرأة واحدة ليقبلها ويستريح وهكذا جمع أبو نواس في محبوبته كل أنواع الفتنة الموزعة على مختلف نساء العالمين:

أبصرت من حَيْثِي روميّةً
تقصر عنها كل إنسيّة^(٦)

(١) الشعر في بغداد لعبد الستار الجوّاري ص ٢٠٦. (٢) أمراء الشعر في العصر العباسي ص ١٢٤.

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص ٣٠٥.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٠٨.

(٥) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ ص ١٨٩.

(٦) ديوان أبي نواس ١٣٢/٤ تحقيق غريغور شولر.

بَصْرِيَّةُ الْغُنْجِ وَكُوفِيَّةُ الْمَنْطِقِ فِي طَاعَةِ شِيعِيَّةِ
مَكِّيَّةِ الْعَطْفِ يَمَانِيَّةِ السَّغْلَمَةِ فِي شَكْلِ مَدِينِيَّةِ
قَصْرِيَّةِ الظَّرْفِ شَامِيَّةِ الْخَلْوَةِ فِي نَكْهَةِ زَنْجِيَّةِ
صُغْدِيَّةِ السَّاقَيْنِ تُرْكِيَّةِ السَّاعِدِ فِي قَدْ طَخَارِيَّةِ
هِنْدِيَّةِ الْحَاجِبِ نَوِيَّةِ السَّفَخُذَيْنِ فِي زَهْوِ عِبَادِيَّةِ
حَيْرِيَّةِ الْحُسْنِ كِنَانِيَّةِ الْأُرْدَابِ فِي أَلِيَّةِ عَاجِيَّةِ
كَأَنَّهَا فِي يَوْمِ تَبْرِيزِهَا جِنِّيَّةِ أَوْ بِنْتُ جِنِّيَّةِ

هذه مقطوعة من الغزل المتكلف المصنوع الذي لا ينم عن عاطفة صادقة ولا مشاعر حقيقية وهو ما تحول إليه الغزل المألوف لدينا من العصر الإسلامي عصر العذريين والسليقة العربية وعصر الشاعر الفارس، والمرأة المحصنة الحرة. بل هو غزل تسلية وتزجية فراغ يشغل به الناس أوقاتهم وهم يتسامرون ويتساقون ويتسامعون^(١) وهو من الغزل الذي يقوله الشاعر لمجرد الرغبة في القول كشاعر لا بد له من الخوض في مختلف الفنون الشعرية ليختلط الغزل العفيف بالغزل الصريح وغزل الجد بالغزل العابث دون أن تتمكن أحياناً من وضع حد فاصل بينهما هذا إلى ضعف في المضمون وركاكة في الأسلوب وليس أدل على ما نقول من مقطوعة قصيرة يحكي فيها أبو نواس امتناع صاحبه عليه لتمنحه قبله امتناع رضا وسرور لا امتناع غضب ونفور مؤيدة امتناعها بأحد أمثال العجم «الفرس» التي يعرفها أبو نواس جيداً وهو أن الصبي إذا أطمع بتلبية طلبه مرة كرر الطلب وبعد تعب شديد سمحت له بالقبلة:

سَأَلْتُهَا قَبْلَةً فَفَزَتْ بِهَا بَعْدَ امْتِنَاعٍ وَشِدَّةِ التَّعَبِ^(٢)
فَقُلْتُ بِاللَّهِ يَا مُعَذِّبَتِي جُودِي بِأُخْرَى أَقْضِي بِهَا أَرْبِي
فَابْتَسَمَتْ ثُمَّ أَرْسَلَتْ مَثَلًا يَعْرِفُهُ الْعَجْمُ لَيْسَ بِالْكَذِبِ
لَا تَعْطِينَ الصَّبِيَّ وَاحِدَةً يَطْلُبُ أُخْرَى بِأَعْنَفِ الطَّلَبِ

كذلك رأيناه يتخذ من القصص القرآني حجة لدحض ما رمى به من خيانة:

أَرْسَلَ مِنْ أَهْوَى رَسُولًا لَهُ إِلَيَّ وَالْمَنْسُوبُ مُحْسُوبُ^(٣)

(١) أبو نواس للعقاد ص ١٧٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٦٣ ط. آصاف.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٧٤ ط. الغزالي.

فقلتُ أهلاً بك من مُرسَلٍ
جَمَّشْتُهُ فِي كَلِمَةٍ فأنشَى
مثلك لا يعشقُ مثلي وقد
وجاءتِ الرُّسُلُ بأنَّ آتَنَا
قالت تعشقتُ رسولي لقد
ذاك وهذا لك يا غادراً
مَنْ يَأْمَنُ الذَّئِبَ عَلَى مَعْرَةٍ
فقلت في رفق وفي تُوْدَةٍ
الذئبُ لا يُؤْمِنُ لَكِنَّهُ
هم طرحوا يوسفَ في جُبِّهِ
ومن حبيب زانه الطيبُ
وقال هذا منك تجريبُ
هَامَ بِهِ بِيضَاءُ رُغْبُوبُ
فجئتُهَا وَالقَلْبُ مَرعُوبُ
بَدَتْ لَنَا مِنْكَ الأَعَاجِبُ
فِي دَفْتَرِ الحَاصِلِ مَكْتُوبُ
أهْلٌ لَان يَخْفِرُهُ الذَّيْبُ
مقالةٌ قد قال يعقوبُ
عليه في يُوسُفَ مَكْذُوبُ
عَمْداً وَقَالُوا خَانَهُ الذَّيْبُ

تقوم التهمة في هذه القصيدة على خيانة أبي نواس صاحبه في رسولها إليه فهو كالذئب الذي لا يؤمن لكن أبا نواس لم ينكر كونه ذئباً بل جعل من نفسه كذئب يوسف المظلوم الذي اتهم كذباً بأكله...!

والحقيقة أنه لا أبو نواس جاد في حبه ولا صديقه غاضبة عليه فالمسألة لا تخرج عن طور المداعبة والمعاينة فهو غزل خال تماماً من جد الحب وحب الجد.

وهذا مثال آخر وفيه يوجه الشاعر التهمة إلى صاحبه لتأخذ هي في الدفاع عن نفسها ولكن بصورة أكثر طرافة وجدة.

نَبَاتٌ بَنَتْ سِبَاكَ اللهُ مِنْ أُمَّةٍ
كَمْ قَدْ عَذَلْتُ وَكَمْ عَاتَبْتُ مَجْتَهِدًا
مَا أَنْتِ إِلَّا عَرُوسٌ يَوْمَ جَلُوتِهَا
أَمَّا البَنَانُ فَقَدْ أَضْحَتْ مَخْضِبَةً
قَالَتْ تَعَلَّلْتُ بِالْحَنَاءِ قَلْتُ لَهَا
كَمْ اعْتَرْتُكَ عَلَى الدَّهْرِ المَشَاغِيلُ^(١)
وَقَلْتُ لَوْ أَخَذْتُ فِيكَ الأَقَاوِيلُ
عَلَى المِنْصَّةِ تَجْلُوهَا العَطَابِيلُ^(٢)
وَالشَّعْرُ مُفْتَرَقٌ بِالبَانِ مَغْسُولُ
مَا بِالتَّطَارِيفِ بِالحَنَاءِ تَعْلِيلُ^(٣)

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٠٩ ط. الغزالي.

(٢) العطايل: المرأة الفتيمة الجميلة الممثلة الطويلة العنق.

(٣) التطاريف: خضاب أطراف الأصابع.

هذي التطاريفُ من غنجٍ ومن عبثٍ
 قالت كُجِلْتُ بعُذْرِ العينِ من رمدٍ
 قالت مُطِرْنَا ولم تمطر فقلت لها
 قالت برمتُ به حملاً فأثقلني
 قالت غلبتُ على نفسي فقلت لها
 زال الحمارُ وكانت تلك مُنيتهُ
 كما زعمتِ فما للطرفِ مكحولُ
 فقلت عذراً فما للشعرِ مبلولُ
 ما بالِ مُشزركِ المصقولِ محلولُ
 هذا الإزارُ فلم حُلّ السراويلُ
 هذا زناكِ فما هذي الأباطيلُ
 في الطينِ أن حمارَ السوءِ موحولُ

في هذه المقطوعة نجد أيضاً تساوي الرجل والمرأة، الشاعر والجارية في المعابثة والمداعبة من غير أن نحس أي أثر قد تخلف عن خيانة الشاعر أولاً والجارية ثانياً لأن المسألة لا تخرج عن كونها هزلاً ولهواً فليس هناك غضب جاد يورث مقاطعة المخون للخائن ولا استحياء الخائن من المخون فينكسر أمامه وإنما هو الهزل في صورة مطارحة كلامية بين صديقين أمسك أحدهما بالآخر متلبساً بخطيئة طالما وقع هو فيها. فهي منازلة كلامية بين امرأة جريئة وقاح وشاعر فاجر متهتك لا يأبه لشيء ما دام ما ينزع إليه من أعمال يرضي غروره وفتنته بنفسه وفتنة الناس به من حوله.

أما آخر ما نشير إليه في حديثنا عن غزل الجوّاري فعبارة عن شكوى الشاعر من حبيب ظالم:

يا ريمُ هاتِ الدّوأةَ والسّقلما
 غضبانَ قد عَزَّني رِضاهُ ولَو
 فليسَ ينفكُ منه عاشقُهُ
 أظُلُّ يقظانَ من تذكُّره
 علقْتُ من أتى على أنفسي الـ
 لو نظرتُ عينه إلى حجبرِ
 أكتبُ شوقي إلى الذي ظَلَمنا^(١)
 يسألُ مما غَضِبْتُ ما عَلِمنا
 في جَمعِ عُذْرٍ لغيرِ ما اجْتَرَمنا
 حتى إذا نمتُ كان لي حُلَمنا
 سِماضينَ والغابرينَ ما نادَنا
 وأدّ فيه فتورها سَقَمنا

في هذه الشكوى يقترب بنا أبو نواس من المذهب المألوف للغزل الطبيعي جامعاً بين الرسول والمحبوب وذلك حين دعا الأول بـ «ريم» مركزاً على ظلم المحبوب وقسوته فقد أعجزه رضاه وهكذا غلب أبو نواس استرضاءه من غير أن يظفر به. فهو شاغله في يقظته وفي نومه. ومن ظلمه أنه لو قتل العالمين طراً لما خالطه الندم ولو سلط نظراته على حجر لأوهنه وأنحله مورناً إياه السقم والضمي...!

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٧٨ ط. الغزالي.

غزله في الغلاميات :

هذا الضرب من الغزل الجديد مرتبط بظهور هذا الصنف من الجوارى ظهوراً قوياً زمن الأمين حين رأت أمه زبيدة شغفة بالغللمان من الخصيان (وابتاعهم وغالى بهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره . . . ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن)^(١). فأرادت أن تصرفه عنهم بأن اتخذت له الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية، والبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فبانق قودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه، فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة وحذا الناس حذوه، واتخذوا الجوارى المظمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات^(٢).

على أن لهذه الظاهرة جذوراً قبل عصر الأمين . يذكر الطبري أن الخليفة المهدي شوهد في سنة ١٦٩هـ في موكب رسمي وصاحب شرطته أمامه في يده الحربة وابنة المهدي البانوقة^(٣) تسير بينه وبين صاحب الشرطة في هيئة الفتیان عليها قباء أسود ومنطقة وشاشية متقلدة السيف وقد رفع ثديها القباء لتهودهما كذلك يذكر أبو علي القالي أنه كان لهارون الرشيد غلامية يعني وصيفة على قد الغلام وكان المأمون يميل إليها^(٤) ويقول الجاحظ أن الجارية إذا وصفت بكمال الحسن قيل كأنها غلام ووصيفة غلامية^(٥).

هذا من الناحية التاريخية، أما من الناحية الفنية فالناظر في غزل الغلاميات يجد أنه ليس مقطوعاً عن الجو العام الذي ساد العصر العباسي من إقبال على اللذات والشهوات إقبالاً شديداً وبالنظر إلى أن الغلاميات كظاهرة متأخرة عن ظاهرة الغلمان في الحياة الاجتماعية فإن التشبيب بهن لا بد وأن يكون متأخراً أيضاً عن التشبيب بالغللمان، لأن الأخير مرتبط أساساً بحب الجنس للجنس أو ما يُعرف بالشذوذ الجنسي وهو قديم أيضاً أقدم من العصر العباسي، وهكذا يصبح التغزل بالغللاميات في جملة المستجدات العباسية ويشكل مع التغزل بالغللمان ظاهرة مزدوجة، أساسها طلب اللذة في ظل الرخاء والمتع المادية المتاحة ورغد العيش وكثرة الجوارى والغللمان من

(١) تاريخ الطبري ٥٠٨/٨ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٢٢٦/٤ - ط . ثالثة - نشر دار الأندلس - بيروت ١٩٧٨ م .

(٣) البانوقة : امرأة (القاموس المحيط).

(٤) الأمالي لأبي عالي القالي ٢٢٥/١ .

(٥) رسائل الجاحظ ٩٥/٢ (كتاب مفاخرة الجوارى والغللمان).

أرقاء البيوت^(١) والعكوف على اللذات من سماع وشراب ونساء وغللمان أيضاً. كذلك قاربت الحياة الاجتماعية في هذا العصر ما بين الغلام والجارية، وكلاهما من أسرى الحروب في المهمة المعيشية، لتتقارب شيئاً فشيئاً أحوالهما السلوكية خاصة إذا عرفنا أن الغلام غالباً ما يكون في السن التي لا تحميه من مغبة السقوط في الهاوية وحين يكون أقرب ما يكون إلى الجارية في مهمته واهتماماته وعلاقاته بمواليه ولداته على السواء.

ولقد جاء اهتمام الأمين بالغللمان خاتمة التحولات البطيئة التي كانت تعمل عملها منذ مطلع القرن الثاني حتى إذا أشرف القرن على نهايته كانت النساء قد بلغن مبلغاً عظيماً من الحرية الاجتماعية ووجيء تقليدهن للغللمان بصفة رسمية على يد السيدة زبيدة المحصلة الأخيرة لتلك الإرهاصات وهكذا فلم يكن التفزل بالغلمايات بعد أن اتخذت الجوّاري أزياء الغلماء ناجماً عن قرار اتخذه الخليفة ولا جاء نتيجة لرغبة عابرة وإنما جاء تعبيراً عن إحساس نابع من صميم معانيات الشاعر الشخصية واهتماماته.

ولقد بلغ من شيوع هذا الضرب من الغزل أن أبا نواس جعله في مقدمات بعض أماديه دون مراعاة لشخصية الممدوح. فأبو نواس صاحب اليد الطولى في إشاعة هذا الصنف من الغزل وهكذا وجدنا الجارية الغلامية في شعره تتخذ أزياء الغلمان وتتخلى عن حليها عدة المرأة ولكن دون أن تتخلى عن كونها أنثى. وكنوع من التوفيق جعلها أبو نواس تقوم بمهمة مزدوجة فهي مذكرة ولكنها تصلح للأميرين:

عليّ عينٌ وأذنٌ من مذكرةٍ موصولةٍ بهوى اللوطيِّ والغزلِ^(٢)
كلاهما نحوها سامٍ بهمتهِ على اختلافهما في موضعِ العملِ

وقد كرر أبو نواس هذا الخلط في مقدمة مدحة أخرى مدح بها العباس بن الفضل بن الربيع مسبقاً على صاحبه صفات المذكر أيضاً:

نَمَّ بما كنتُ لا أبوحُ بهِ على لسانِ بالدَمعِ مِنْطِقِ^(٣)

(١) تاريخ العرب (مطول)، لفيليب حتي ٤١٨/٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٤٤٩ ط. الغزالي.

(٣) منطيق: مبالغة في ناطق. هناك اختلافات واسعة حول هذا البيت الموشح: ٤١٥، الشعر والشعراء ٧٩٥/٢،

الديوان ط. بغداد ص ٤٨٦.

شوقاً إلى حُسن صُورَةٍ ظَفِرَتْ
وصيفُ كأسٍ مُحدَثٌ ولها
تشوبٌ ذلاً بعزّة فلها
وردفُها كالكتيبِ نِيطَ إلى
أمشي إلى جنبها أزاخُمها
عمداً وما بالطريقِ من ضيقِ

لم يكتب أبو نواس بإسباغ صفة المذكور على صاحبه بل تجاوز هذا الحد إلى وصفها أيضاً بوصيف كأس وبأنها محدث لبق وبمغن تياه مفاخر بفته وحسن صوته، وبزنديق ظريف وتجمع بين ذل العاشق وعز المعشوق وهذا مذهب جديد بل غريب في الغزل لم نألفه من قبل وهو تعقيد للفكرة الغزلية ما كان لغير الغلامية أن تثيره أو تبتعثه من صميم شاعر كان هو الآخر أشبه بسلاماته معقد التركيب حين أصبح يصلح للأمرين كما كانت غلامياته، كل هذا من غير تجاهل لواقع المرأة مما جعله يضيف على غلامياته نفس المقاييس الجمالية التقليدية من ردف ثقيل وقد مشوق وخصر نحيل كأنه الغصن الرقيق اللحاء. وفي صدر مدحة في الفضل بن الربيع شعرنا أبو نواس أن الغلاميات قد شاع استخدامهن في قصور العظماء وهو يقدمهن بأزيائهن المستحدثة وأشكالهن الجديدة على خلاف ما ألفنا من أزياء الجوّاري وأشكالهن^(١):

ولقد تحلُّ بعقوة الـ
وبما تُواكبُهِنَّ ما
صُورٌ إليك مُؤنثا
عُطلُ الشوى ومواضع
أرهفنَ أرهافَ الأعنةِ
والحمائلِ والسُّيورِ^(٢)

- (١) والمعنى أن ريقها عذب كأنه من ماء عين في الجنة لحلاوته وعذوبته.
(٢) في طبعة بغداد ص ٤٨٦ «وصيف كأس محدث ملكاً» وفي آصاف ص ٨٩ «وصيف كأس محدث ملك» وفي طبعة فاجنر ١٨٨/١ «وصيف كأس محدث ملك».
(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٦٥ ط. الغزالي.
(٤) العقوة: المحلة أو وطن القوم.
(٥) صور اليك: موائل بأعناقهن.
(٦) عطل الشوى: عطل الأطراف من الحلبي. استغناء بجمالها.
(٧) أرهفن: أي مشوقات من قولك أرهف السيف رققه.

مُوقِرَاتٍ فِي الْقُرَا طِقِ وَالخَنَاجِرُ فِي الخُصُورِ
أَصْدَاغُهُنَّ مَعْقِرِبَاتٍ وَالشَّوَارِبُ مِنْ عَبِيرِ
مِثْلُ الطَّبَاءِ سَمَتْ إِلَى رَوْضِ صَوَادِرٍ مِنْ غَدِيرِ

فهؤلاء الجوارى عطل من الحلي مرهفات القدود وقد أثبتن الخناجر في الخصور وارتدين الملابس الفارسية من قراطق وأقبية وأطلن أصداغهن كما كان يفعل الغلمان في ذلك العصر^(١) وخططن مكان الشوارب بالمسك فكن أشبه بالطباء الصادات عن الغدير مهابة وجمالاً وهكذا فتنت الجوارى الغلاميات أبانواس لأنه رأى في أزيائهن المصطنعة لوناً جديداً من الإثارة غريباً غير مألوف ومحاولة للكشف عن مجهول في الأنثى المبتغاة ولذلك أقبل على التشبيب بالغلمان ممن كانوا يصطنعون أزياء الجوارى ويتشكلون بأشكالها. في هذه الطائفة من المجتمع تعقدت العلاقات الإنسانية وصار الجنس يطلب صنوه سواء أكان الطالب رجلاً أم امرأة والمطلوب هي الجارية في زي غلام مخنث أو الغلام في زي جارية غلامية لتلتقي على الطريق ما بينهما بالجنس الثالث في حين أن المطلوب الحقيقي في الحالين هي الأنثى أو ما يدل عليها وإلا لما أسبغ أبو نواس على غلمانه صفات المرأة فقد كان حقه أن يضي عليهم جماليات تنبع من خصائصهم الذكرية وأن يتجنب كل ما يقارب بين الجنسين بسبب كما كان حقه أن لا يرى في الغلامية مرة امرأة وأخرى غلاماً أو كليهما معاً وفي الغلام المؤنث مرة جارية وأخرى غلاماً أو كليهما معاً. والحقيقة أن هذا الانحراف خلق ما بين الجارية والغلام مبادئ جمالية مشتركة في الزي والشكل والسلوك والوظيفة أو ما يمكن أن نطلق عليه بازدواجية الجنس وهكذا أعجب أبو نواس بهذا الصنف من الجوارى الغلاميات من اللواتي تطيل شعور أصداغهن وتعقربه على هيئة العقرب وكذلك كان يفعل الغلمان من الذين يشبهونهن بصورة مقاربة كما يصفهن بالقدود النحيلة المرهفة، وبأنهن يتهادين في قمصهن المزرة مثلما كان يفعل الغلمان من المخنثين. وبعد هذا يسلمنا أبو نواس بصورة طبيعية إلى الغاية وهي أن هؤلاء الجوارى الغلاميات هن أناث وذكور، غلمان مخنثون وجوار غلاميات فهن إذن مزدوجات الشخصية أو هن الجنس الثالث الذي نشأ في ظلال الحضارة العباسية:

عَدَّبَنِي حُبُّ غَلَامِيَّاتٍ ذَوَاتُ أَصْدَاغٍ مُعْقِرَاتٍ^(٢)
مُقُومَاتِ الْقَدِّ مَهْضُومَاتٍ يَمْشِينَ فِي قُمْصٍ مُزَّرَاتِ

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم متر، ترجمة عبدالهادي أبو ريده ٢٣١/٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ١٦٦ ط. الغزالي.

يَصْلُحْنَ لِلأَطْفَالِ وَالزُّنَاةِ أَكْنِي بِوَصْفِهِنَّ عَنْ مَوْلَاتِي
تلك التي في يدها حياتي

فإلا تكن الجارية غلاماً فإن الغلام شبيهاً:

غلامٌ وإلا فالغلامُ شبيهاً وريحانٌ دنيا لذة للمعانيق^(١)
وأيضاً:

مذكورة مؤنثة مهابة إذا برزت تُشَبِّهها غلاماً^(٢)
وكذلك قوله في همزته المشهورة:

من كف ذات جِرٍّ في زِيٍّ ذِي ذَكَرٍ لَهَا مُحِبَّانِ لوطِيٍّ وَزُنَاءِ^(٣)
وغير هذا كثير، ولكن ربما اختلط الأمر على أبي نواس بعد أن تشاكلت الأزياء وتشابهت
الأشكال وتقاربت النوازع والأهواء:

ضَلُّ فِي وَصْفِكَ حُكْمِي وَبِحَقِّ مَا الْأُمُّ^(٤)
فَأَبْنُ لِي: أَكْعَابُ أَنْتَ أُمُّ أَنْتَ غُلَامٌ

ورغم هذا كله تبقى للغلامية فتنتها الأنثوية ونوازع الإغراء من خلال سلوكها:

من كف ساقية مُقَرَّطَقَةٍ نَاهِيكَ مِنْ حُسْنٍ وَمِنْ ظَرْفِ^(٥)
نظرت بعيني جُوذِرٍ خَرِقٍ وَتَلَفَّتْ بِسَوَالِفِ الخِشْفِ^(٦)
قالت وقد جعلت تمايل لي كتمايل الماشي على الدف
وجهي إذا أقبلت يشفع لي وعذاب قلبك حسن ما خلفني

والغالب أن تكون الغلامية ساقية تقوم مقام الغلام المخنث ولكن دون الانتقال بها من صنف
الإناث إلى صنف الذكور:

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٩/٢.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٥٠ ط. الغزالي.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٦.

(٤) ديوان أبي نواس ٣٢٨/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٦٦ ط. الغزالي.

(٦) الجوذر: ولد البقرة الوحشية. الخرق: الذي دهش من خوف أو حياء. الخشف: ولد الظبي.

وصيفة كالغلام تصلح للأمرين
 في قرطبي زانه تخرسناها
 كملها الله ثم قال لها
 لو قيل للحسن صف محاسنها
 مرين كالغصن في تشنيها^(١)
 قد عقرت صدغها مداريها^(٢)
 لما استتمت في حسنها إيها
 ما اسطاع ضعفاً بذاك يحكيها

وأما كون هذه الجارية «الغلامية» تجمع بين الأمرين فإنما ذلك لمضاعفة متعة الشاعر. وأحد هذين الأمرين طبيعي والآخر حاول أبو نواس أن يلتبس فيه الأمر الطبيعي ولكن بطريقة غير طبيعية. والحق أن الشاعر لم يستطع أن يتجاوز الحد الفاصل ما بين الجارية والغلام ومن أجل هذا كان كل ما أشاد به من جمال هذه الغلامية، هو جمال الجارية. . . الأثنى رغم ارتدائها القرطبي الفارسي ولوى شعر صدغها على هيئة العقرب كما كان يفعل الغلمان في عصرها^(٣) وقد حباها الله بجمال تام يعجز المحسن عن محاكاتها، على أنه ربما جاز لنا أن نعتبر الغلامية سواء بمظهرها الخارجي أم بسلوكها الداخلي ظاهرة ثقافية بفرعيتها النظري والعملي وهنا لا بد أن نقرر أن أبا نواس كغيره من أبناء طبقته الاجتماعية شاعر محمول بتيار عصره كانت تتدفق في أعماقه أنهاره وأمواجه العاتية لتتلاءم مع استعداده وممارساته فصرنا نراه في غلمانياته وغلامياته مشوقاً بقدر ما هو ممارس فكانت أشعاره فيهما تنبع من صميم وجدانه ويتوخى هو القصد إليها، بل نستطيع أن نقول أنه كان جزءاً من الظاهرة بل عاملاً مؤثراً فيها بقدر ما كان مفتوناً بها لتجيء أشعاره الغلامية والغلمانية وكأنها وثيقة العصر الوحيدة على معابثات الجيل واهتماماته. يقول أبو نواس من خمرة له في ساقية:

وخذ من كف جاريةٍ وصيفٍ
 لها شكُلُ الإناثِ وبينَ بينِ
 فأحياناً تقطُبُ حاجبَيْهَا
 وأحياناً تشنئ كالْحُسَامِ
 رخيماً الدَّلِّ ملثوغِ الكلامِ^(٤)
 ترى فيها تكاريةَ الغلامِ

وهذه غلامية أخرى من خدم القصور منسوبة إلى البرامكة مما يدل على أن بذور هذه الظاهرة موجودة قبل خلافة الأمين، فتننت أبا نواس بثدييها الناهدين وحسن جيدها ورونق نحرها قد زوقت أصداعها ولوت شعرها على هيئة العقرب أو النون:

(١) ديوان أبي نواس ص ١٩١ ط. الغزالي.

(٢) مداريها: مفردها المدري وهي المشط.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم متز، ترجمة عبد الهادي أبو ريده ٢/ ٢٣١.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٦٩٣ ط. الغزالي.

وناهدة الشديين من خدم القصر سبتي بحسن الجيد والوجه النحر^(١)
 غلامية في زيتها برمكية مزوقة الأصداغ مطمومة الشعر
 والظاهر أن زي الغلاميات أصبح مألوفاً في ذلك العصر فالجاحظ يذكر (أن الجارية إذا وصفت
 بكمال الحُسن قيل كأنها غلام ووصيفة غلامية)^(٢)، ولكن أبا نواس يقول إن اصطناع الغلامية زي
 الغلام ليس لاستكمال أسباب الحسن والجمال لا، بل لأنه ألصق بالفسوق وأكد للأثام، وذلك لم
 يكن ليتم لها إلا بعد طول مران وتدريب لتظهر بزوي الغلامية من ترجيل شعرها، وإطالة صدغها،
 وكف كمها إلى الوراء لتبدو زنداها. . . ومن هوايات الغلامية التي تستطيل بها على الجوّاري
 معرفتها بفنون اللهو والتسلية فمن شطارة في السلوك والمظهر وتفنن في الغرام وانصراف عن نقر
 الدفوف كما جرت عادة الجوّاري إلى اتقان العزف على الطنبور في مجلس الندام وغدوها على
 ميادين الصوالج^(٣) كل يوم للعب والتسلية كما يفعل أبناء الجيل من أهل اللهو والعبث والصيد
 بالسهام والبنادق^(٤):

رأت زي الغلام أتم حسناً وأدنى للفسوق وللأثام^(٥)
 فما زالت تُصرفُ فيه حتى حكته في الفعال وفي الكلام
 تُرجلُ شعرها وتطيلُ صدغاً وتلوي كمها فعل الغلام
 وراحت تستطيلُ على الجوّاري بفضل في الشطارة والغرام
 تعافُ الدفّ تكريهاً وفتكاً وتلعبُ للمجانة بالحمام
 ويدعوها إلى الطنبور حذقُ إذا دارت مُعتقة المُدام
 وتغدو للصوالج كل يوم وترمى بالبنادق والسهام

واضح أن الغلامية أصبحت نموذجاً متميزاً في مجتمع الجوّاري لا مجرد نزوة عابرة أو مظهر
 خارجي جذاب طفحت على السطح بصورة تشبه أن تكون فجأة بل وراء ذلك جملة من العوامل
 الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كانت تعمل في أناة واستمرار ويكفي أن نتذكر ما قاله الجاحظ عمّا

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٦٤ ط. الغزالي .

(٢) رسائل الجاحظ ٩٥/٢ .

(٣) الصوالج : المحاجن المفضضة .

(٤) البنادق: كرات صغيرة تتخذ من طين لزج ويرمى بها عن الجلاهدق وهي القوس تتخذ من الفنا .

(٥) الفكاهة والالتناس في مجون أبي نواس ص ٦٠، وديوان أبي نواس ص ٣٧٤ ط. الغزالي .

كانت تحصله القيان من الثقافة الشعرية حفظاً مقداره نحو (عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب، وإنما بُنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلظة)^(١). بل إن الكثير من الجوّاري أو القيان كن شاعرات^(٢) ومنهن مَنْ كانت تناقش الأطباء في علومهم^(٣) أما غلاميات أبي نواس فقد كانت لهن ثقافتان عملية ونظرية. عملية تتلقى فيها الجارية كما يقول أبو نواس على يد قواد محترف يرتزق من مهنة القيادة وأصول الإغراء والغواية. وعن قبان هذا المقيم تتلقى كيف تصل الرسائل بين العشاق وبين عشيقاتهم حتى تنضج وتستوي في كمال عودها فتصبح عارفة كيف تعد ولا تفي، أو كما يقول الجاحظ أكثر أمرها قلة المناصحة واستعمال الغدر والحيلة^(٤) وهذا ما يقوله أبو نواس شعراً في النص التالي :

من كَفِّ ساقيةٍ ناهيكَ ساقيةً في حُسْنِ قَدِّ وفي ظَرْفِ وفي أدبِ^(٥)
 كانتُ لربِّ قِيانٍ ذي مغالبة بالكشخ محترف بالكشخ مكتسب^(٦)
 فقدراتٌ ووعتٌ عنهنَّ واختلقتُ ما بينهن ومن يهوننَّ بالكتبِ
 حتى إذا ما غلى ماءُ الشَّبَابِ بها وأُفِعِمَّتْ في تمامِ الجسمِ والقصبِ
 وجُمِّشتُ بِخَفِيِّ اللَّحْظِ، فأنجمشتُ وجَرَّتِ الوَعْدِ بين الصَّدْقِ والكذِبِ^(٧)
 تَمَّتْ فلم يرَ إنساناً لها شَبهاً فيمن برى الله من عَجْمٍ ومن عَرَبِ

وفي ختام هذا الفصل من حديثنا عن التغزل بالغلاميات نتوقف عند مقطوعة شعرية فيها يطلعنا أبو نواس على اهتمام هذه الفئة من الجوّاري (الغلاميات) بما يدل على أن سقوطهن لم يكن سلوكاً عملياً خلواً من فكرية أو اجتهاد نزعن إليه نزوعاً يقول أبو نواس :

لقد صُبِّحتُ بالخيرِ عينٌ تصبَّحتُ بوجهك يا «معشوق» في كُلِّ شارقِ^(٨)
 مَقْرَطَةٌ لم يَحْنِها سَحْبٌ ذَيْلُها ولا نازَعَتْها الرِّيحُ فضَلُ البنائِقِ^(٩)

(١) رسائل الجاحظ ١٧٦/٢ (كتاب القيان).

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢ وما بعدها.

(٣) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ ص ١٩٠.

(٤) رسائل الجاحظ ١٧٥/٢ (كتاب القيان). (٥) ديوان أبي نواس ص ٧٢ ط. الغزالي.

(٦) الكشخ: جمع النساء والرجال لريبة. والكشخان: الديوث.

(٧) جمشت: التجميش المغازلة والملاعبة.

(٨) ديوان أبي نواس ص ٢٥٨ ط. الغزالي. (٩) البنائق: جمع بنية لبنة القميص.

تُشَارِكُ فِي الصُّنْعِ النَّسَاءَ وَسَلَّمَتْ
 وَمَطْمُومَةٌ لَمْ تَتَّصِلْ بِذُوَابَةٍ
 كَأَنَّ مَخْطُ الصُّدُغِ فَوْقَ خُدُودِهَا
 نَدَتْهُ بِمَاءِ الْمَسْكِ حَتَّى جَرَى لَهَا
 غَلَامٌ وَإِلَّا فَالْغُلَامُ شَبِيهُهَا
 تَجَمَّعَ فِيهَا الشُّكْلُ وَالزِّيُّ كُلُّهُ

لهن صُفوفَ الحلي غير المناطقِ
 ولم تَعْتَقِدْ بِالتَّاجِ فَوْقَ المَفَارِقِ
 بَقِيَّةُ أَنْقَاسٍ بِإِصْبَعٍ لِأَيْقٍ^(١)
 إِلَى مُسْتَقَرٍّ بَيْنَ أُذُنٍ وَعَاتِقِ
 وَرِيحَانُ دُنْيَا لَذَّةٌ لِلْمُعَانِقِ
 فَلَيْسَ يُوفِّي وَصْفَهَا قَوْلُ نَاطِقِ

هذا، وفي بعض نشرات الديوان^(٢) هناك بيتان زيادة على ما ورد في طبعة الغزالي هما:

فطَانَةٌ زَنَدِيقٌ وَلِحْظَةٌ قَيْنَةٌ
 وَتَقْطِيبُ سِجْنِيٍّ وَتَكَرِيهُ شَاطِرِ
 بَعِينِ الَّذِي تَهْوَى وَمُنِيَّةُ عَاشِقِ
 وَنَظْرَةٌ جِنِّيٍّ وَلِحْظٌ مَنَافِقِ

إذا أمعنا النظر في هذه المقطوعة وجدنا أبا نواس قد جمع فيها خلاصة عجيبة لفكرية وخلقية هذه الفئة الفاسقة الذكية من الجوّاري بكل خبراتها العملية في ميدان الإغواء والإغراء وبكل اهتماماتها الثقافية التي أطلعنا «الجاحظ» على جانب مهم منها «فمِعشوق» وهو اسم جارية أسماء بنت المهدي التي أدار أبو نواس مقطوعته الشعرية عليها قد خالفت بزيبها الغلامي زي الأعرابية فهي مقرطقة بذلك الثوب الفارسي، فلا ربح تنازع ذيلها الطويل وهي تجره خلفها كما تخلت عن حليها إلا المناطق تشد بها على خصرها وقصت شعرها مع اصطناع الطرر والأصداغ كما كان يفعل الغلمان، ولم تزين مفرقها بتاج مرصع على عادة النساء، كما دعت هذه الجارية اللاتق «الكاتب» ليكتب على صدغها بماء المسك، وأن يخط حيث مستقر تلك الكتابة بماء الغالية بين أذنيها وعاتقها خطأ حتى أصبحت في تمام جمالها وبهائها ريحان الدنيا ولذة للمعانق يعجز الناطق عن وصفها وهي شبيهة بالغلام أو كان هو شبيهها.

هذا من جهة الجانب الجمالي، أما من جهة الجانب الثقافي أو الفكري أو الأخلاقي فيظهر لنا في وصف أبي نواس لهذه الغلامية بالزندقة وأن لحظها مخالف لما في قلبها هو عين ما قاله الجاحظ في «رسالة القيان» من أن القينة لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودها.

وهكذا تظل الجارية الغلامية تتقلب في أحوال عجيبة حتى أنها لتتصنع القسوة أحياناً فترسم

(١) المخط: المنبت. الأنقاس: جمع نقس وهو المداد. اللاتق: من لاق الدواء أي أصلح مداها أو هو الكاتب.

(٢) ديوان أبي نواس ٩١/٤. تحقيق غريغور شورلر، وص ٣٨٧ ط. أصاف.

على وجهها جهامة السجان وممانعة العيار فيا لها من خبيثة شاطرة تعيبى عشاقها خبثاً وشرأ، وبألها من منافقة شريرة كأنها أحد الأبالسة .

ولعله يكون قد اتضح لنا أن غزل أبي نواس في الجوارى من غير جنان والغلاميات منهن بشكل خاص، قد انحرف به أبو نواس انحرافاً شديداً عن الغزل الطبيعي الذي مثله ما قاله في جنان، وذلك لما ضمن هذا الغزل من هزل وعبث تجاوز به حد الشذوذ، حتى أنه ليندر أن نجد شاعراً آخر أولى طائفة الغلاميات ما أولاهن أبو نواس حتى ظهر وكأنه المبتكر الأول والأخير لهذا الضرب من الغزل .

غزله في الغلمان :

إن غزل أبي نواس في الغلمان لا يمثل قمة شذوذه فحسب بل هو قمة شذوذ العصر لأنه أدخل الغزل من موضوعه الأصلي وهو المرأة لينحرف به إلى التعبير عن علاقة شاذة منحرفة . ومعنى هذا أن للغزل في الغلمان وجهين أحدهما اجتماعي والآخر فني . والأول متقدم على الثاني بدليل أن هذا الشذوذ كان معروفاً عند كثير من الأمم القديمة .

هذا، ولم يشر فن من فنون أبي نواس الشعرية ضجة كالضجة التي أثارها غزله في الغلمان وذلك لسببين اثنين : الأول، كثرة هذا الغزل كثرة بالغة لم نصادفها عند شاعر آخر حتى قيل أن الأمين منعه من التشبيب بالغلمان بعد أن أكثر القول فيهم^(١) كما سبق أن منعه من شرب الخمر وأمره بوصف الأطلال . الثاني، أن أبا نواس يطالعنا من خلال هذا الغزل الشاذ كما لم يطالعنا غيره من الشعراء بجدلية الدفاع عن شذوذه، مع الأزراء بما يتناقض مع هذا الشذوذ من قيم وأعراف ومن غزل طبيعي أيضاً، حتى لقد أزرى بالمرأة باعتبارها تحتل موضوع الغزل الطبيعي في مواجهة الغلام موضوع الغزل الشاذ، ومثل هذه الجدلية لم تصادفنا في غلامياته (أي غزله في الغلاميات) التي تمثل حالة شاذة أيضاً ولكنه لم يتجاوز بها المرأة إلى الغلام، بل لقد لجأ إلى التوفيق بينهما فيما دعونه بالجنس الثالث .

أما عن كثرة هذا الغزل ووفرتة فيتبدى لنا من خلال كثرة أصحابه من الغلمان على صواحيبه من الجوارى، حتى أنني عدت له أكثر من ثلاثين اسماً من الغلمان، هذا عدا من لم يسم مكتفياً بإطلاق بعض النعوت عليهم، في حين لم تتجاوز أسماء صواحيبه من الجوارى العشرين عدداً .

وفيما يلي بيان بأسماء هؤلاء الغلمان مستخلصة من ديوانه بمختلف طبعاته ومن كتابي أخبار

(١) الذخيرة لابن بسام : قسم ثان - المجلد الأول ص ١٢٨ .

أبي نواس لابن منظور وأبي هفان: ابن فورك - اللهي - جندب - عبدالله أو أبو محمد أو ابن نجاح أو مظفر - موسى - رحمة - علي - درير محمد أو أحمد - ابن مسعدة - سعيد - عبدان - حمدان - ليث - فضل - عمرو - عبويه أحمد الكاتب - علي (أو أبو حسن) - أحمد بن عبد الوهاب الثقفي - حسن - تولب - سعد الفلك أبو القاسم (وقد عرفه محقق الديوان برواية الصولي بقوله: لعله يقصد أبا القاسم بن الحسن بن سهل)^(١) - العروضي عبدالله - محمد بن سيار - جمال الكوفي - أحمد بن أبي صالح - غلبون الصفدي - محمد بن إسماعيل بن صبيح - ابن اسطفوس النصراني - المفضل - يعقوب من أصحاب الخراسي^(٢) - إسحق - كوثر - عمران بن عمروه - بكر - موسى .

هذا، وهناك أمر هام جداً هو أن البيئات التي كان أبو نواس يجوس خلالها بصنعة شذوذه ومهنة انحرافه كادت تستغرق في جميع الطبقات الاجتماعية في عصره . فمن هؤلاء الغلمان التلميذ في المكتب، كقوله في أحدهم:

إِن فِي الْمَكْتَبِ خِشْفًا جُعِلْتَ نَفْسِي فِدَاهُ^(٣)

وفي آخر، يصف إهماله في واجباته المدرسية، وما ناله من عقوبة على يد معلمه حفص، مظهراً عطفه عليه:

إِنِّي أَبْصَرْتُ شَخْصًا قَدْ بَدَأَ مِنْهُ صَدُودُ^(٤)
 ذَاكَ فِي مَكْتَبِ حَفْصٍ إِنْ حَفْصًا لَسَعِيدُ
 لَمْ يَزَلْ مَذْكَانَ فِي الدِّرِّ رَسٍ عَنِ الدَّرْسِ يَحِيدُ
 كُشِفَتْ عَنْهُ خَزْوُذُ وَعَنِ الْخَزْرِ بَرُودُ
 ثُمَّ هَالُوهُ بِسِيرٍ لَيْنٍ مَا فِيهِ عَوْدُ
 عِنْدَهَا صَاحَ حَبِيبِي يَا مَعْلَمَ لَا أَعُودُ
 قَلْتُ يَا حَفْصُ أَعَفُّ عَنْهُ أَنَّهُ سَوْفَ يُجِيدُ

ومن الغلمان الذين كان لهم دور ظاهر في غزله الشاذ كُتِّبَ الدواوين، من ذلك قوله من مقطوعة في أحدهم يذكرنا بإحدى مقطوعاته التي قالها في جنان حين اتهمته بالخيانة، لما رآته من

(١) ديوان أبي نواس ص ٩٢٩ ط . بغداد .

(٢) الخراسي : نسبة إلى خراسان . يقال خراسي وخراساني .

(٣) ديوان أبي نواس ط . آصاف ص ٤٠٤ ، و ١٩٤/٤ بتحقيق غريغور شولر .

(٤) ديوان أبي نواس ط . آصاف ص ٤١٨ .

محو في أحد كتبه إليها، فأرسل يدافع عن نفسه^(١)، وهذا هو يكرر الموقف نفسه لولا الاختلاف بين جنان العفة، وغلّام فاسد سبّ أبا نواس كما سبته جنان، ولكن أبا نواس يعترف للغلّام بالبراعة معاتباً إياه في رفق وأناة، أو لنقل إنه يداعبه، حين لم يول هذا الكاتب أبا نواس ثقته، وإذن فأبو نواس في مقطوعته التي قالها في جنان كان جاداً لأنه كان يصدر فيها عن عاطفة صادقة، في حين لا يخرج في موقفه مع الغلام عن حد اللهو والمعابثة والمداعبة:

يا كاتباً كتب الغدأة يسبني من ذا يطيق براعة الكتاب^(٢)
 لم ترض بالاعجام حين كتبتَه حتى شكلت عليه بالإعراب
 أخشيت سوء الفهم حين فد لمت ذا أم لم تشق بي في قرأة كتاب
 لو كنت قطعت الحروف فه متها من غير وصلكهن بالأسباب
 فأردت إفهامي فقد أفهمتني وصدقت، فيما قلت، غير مجاب
 وتكرر مقطوعاته في كتاب الدواوين كثيراً فمن ذلك مقطوعة يقول في مطلعها، وقد غاب عن ذهنه اسم صاحبه أوانه لا يعرفه على الأصح:

يا ذا الذي لست أدري ما اسمه بأبي
 مالي ومالك قد هيّجت بلّالي^(٣)
 أحسبت من حبك الديوان يا أملي

ولم يكن حبي الديوان من بالي
 وفي كاتب آخر يقول ناعماً إياه بزین كتاب الدواوين وفيلسوف الخرد العين. هكذا نرى أبا نواس لا يستطيع أن يستبعد المرأة وما قيل فيها وما جرى الغزل في تقيظها وتمجيدها من غزله في المذكور بل يستعير من الغزل المؤنث، وربما أضفى على أصحابه من الغلمان صفات صوابه من القيان والجواري^(٤):

يا زين كتاب الدواوين وفيلسوف الخرد العين^(٥)

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٩٣.

(٢) ديوان أبي نواس ٤/١٥٩ بتحقيق غريغور شولر.

(٣) المصدر السابق نفسه ٤/٣٠٨.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٩٣٢ ط. بغداد.

(٥) الخرد: جمع خريدة وهي المرأة البكر الحسنة. والعين: جمع عيناء وهي ذات العينين الواسعتين.

يا فتنَةً سَبِقَتْ إِلَى فِتْيَةٍ عُدَابِ كِتَابِ مَسَاكِينِ

هذا، وربما كان الشيء الجديد الظاهر لنا من هذا الغزل هو شخص المتغزل فيه من مهنة حرفية، أو طبقة اجتماعية أو صفة شخصية، لأن كثرة مَنْ سَمِيَ لنا أبو نواس من الغلمان تمنع أخذ الكثير من غزله فيهم مأخذ الجد، خاصة أن بعضهم لم يكن يعرفه، فهي إذن بدعة^(١) حملها إلى الشاعر العصر العباسي فأولع بها الشاعر أيما إيلاع، لأنها جاءت موافقة تماماً لمزاجه الشاذ الغريب ونشأته المريية وعدم مبالاته بأي شيء إلا مصلحته ولذته ما دام يقدر على أن يكون لا أبا ليا، وهكذا مضى يتلقظ غلمانه أين وقع عليهم، لا يضيره ضائر ولا يزجره رادع، مداعباً ومماجناً ومخابثاً، يذكر «ابن منظور» أن أبا نواس دخل إلى ديوان الخراج وهناك التقى بـغلام ماجن ظريف، فأخذ قلمه وكتب إليه: (تحبني كما أحبك؟ فكتب الغلام لا. وفتن صاحب المجلس له فلم يسع الصبي إلا أن زاد لفظي له إلا هو. فعجب أبو نواس من فطنته فقال فيه على الفور:

وَمُسْتَمِدٍّ مِنَ الدَّوَاةِ وَمَا يَشْغَلُهُ الْقَوْمُ بِالذِّي فَاهُوا
يَكْتَبُ لِي لَا فَإِنْ هُمْ فَطِنُوا زَادَ عَلَيْهَا إِلَا هُوَ^(٢)

وإذا كانت القصة محبوبكة للإطراف والإمتاع فإن البيتين في مقام الحكاية أكثر إمتاعاً وإطرافاً.

هذا، ولم يكن أبو نواس يتورع عن مطاردة الغلمان في أي مكان وبحضور مَنْ كان، يذكر ابن منظور أيضاً، أن إسماعيل بن صبيح الذي تولى ديوان الرسائل بعد البرامكة رغب إلى أبي نواس أن يدخل على ابنه محمد الذي تولى ديوان الرسائل من بعده حتى يحدثه وينشده، وكان محمد فتى أمرد حسن الوجه، فكان أول ما أنشده أبو نواس من الشعر ما لا نستطيع روايته ومنه هذا البيت الفاضح أيضاً:

بِأَبِي أَنْتَ مِنْ بَدِيعِ جَمَالِ فَاقْ حُسْنَ الْوَجْهِ حُسْنُ قَفَاكَ^(٣)

وهذا غلام صيرفي أجاد أبو نواس استغلال مهنته حين يشبه كفه والدينار الذهبي مستقر فيها بـرجسة مظلومة بالندى، حريص عليها مجتنبها من مغبة القطاف:

إِذَا انْتَفَدَ الدِّينَارُ شَبَّهْتُ كَفَّهُ لَدَى صُفْرَةِ الدِّينَارِ فِي وُضْحِ الْكَفِّ^(٤)
بِـرَجْسَةٍ أَضَحَّتْ وَقَدْ طَلَّهَا النَّدَا شَفِيقٌ عَلَيْهَا مُجْتَنِبُهَا مِنَ الْقَطْفِ

(١) أبو نواس الحسن بن هانئ، للعقاد ص ١٧٢.

(٢) مختار الأغاني ٩٢/٣.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٤٢٩ ط. آصاف.

(٤) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٥/٢.

وفي مثال آخر جعل صاحبه الصيرفي تذلل له الدنانير لأن بهاءه غلب على بهائها. وهو معنى
طريف مبتكر أوحى به إلى الشاعر مهنة الغلام:

يا صارفياً تذلل صاغرةً لك الدنانيرُ من تلاً ليكا^(١)
بل لقد بلغت الجراة بأبي نواس أن اتخذ من المساجد مسرحاً لعملياته الغلمانية كقوله في غلام
وضيء كان يصلي إلى جانبه:

بحرْبَةِ مُقْلَتِيكَ أُرِدْتُ دَبْحِي وَفَتْكَةَ مِقْلَتِيكَ بَغِيرِ جِرْحِ^(٢)
فِإِذِ بَدْمِي أُرِدْتُ تُقَى وَنُسْكَا فَلِمَ ضَحَّيْتُ بِي مِنْ قَبْلِ تَضْحِي
ولم يكن أبو نواس يفرق بين الحانة والحانوت والخمارة والدير، وبين المسجد الجامع ففيها
جميعاً كان ينصب شبابه ويخاثل فرائسه حتى أن المسجد الجامع ليبدو له بما ضم من مصلين
معرضاً للفتنة والجمال أشبه بالبستان:

كَأَنَّ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ عِنْدَ اللَّيْلِ بَسْتَانٌ^(٣)
وَفِيهِ مِنْ طَرِيفِ النَّبْتِ وَالْأَزْهَارِ أَلْوَانُ
لَهُ فِي خَدِّهِ خَالٌ بِهِ الْأَلْبَابُ فُتَّانُ
وَقَدْ جَرَّعَنِي كَأْساً لَهَا فِي الْقَلْبِ نِيرَانُ

بل إنه يذكر باللفظ الصريح أنه كان يوقع ضحاياه بأسلوب مختلة الصائد في المسجد
الجامع^(٤):

رَأَيْتُ الْمَسْجِدَ الْجَامِعَ قَفَّاعَةً إِبْلِيسَ^(٥)
فَكَمْ فِي الصَّحْنِ مِنْ قَلْبٍ كَلِيمِ الْجِرْحِ مَخْلُوسِ
بِعَثْنَا فِي سَبِيلِ الْغِيِّ أَفْوَاجَ الْكِرَادِيسِ^(٦)
فَكُرْدُوسٌ لِعَمَّارٍ وَكِرْدُوسٌ لِعَبْدُوسِ

(١) ديوان أبي نواس ٢٧٩/٤ تحقيق غريغور شولر. (٢) المصدر السابق نفسه ١٨٩/٤.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٧١١ ط. الغزالي.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٧٢٣.

(٥) قفاعة: القفاعة: شيء يتخذ من جريد النخل ثم يقذف به على الطير فيصاد والمراد عريشه.

(٦) الكراديس: القطع العظيمة من الخيل.

وإذا كان أبو نواس يصدّم مشاعرنا الدينية والأخلاقية بما يثيره نحو المسجد الجامع من شعره هابط فإننا لا نملك أنفسنا أحياناً من الضحك وهو يرسم بعض الصور العابثة ففي مقطوعة مكونة من ثلاثة أبيات يرسم لنا صورة مضحكة وهو يجمش غلاماً في مسجد حين أخذ يفتش عن خذائه تحت الغلام وهو عارف أنه ليس تحته مدلاً بهذا الضرب من العبث واللهو الذي لا يقدر عليه أحد غيره وهو يفعل كل هذا العبث حتى تلامس رجله رجل الغلام:

أزاحمهُ إذا صَلَّى لتمسحَ رجلُهُ رجلي^(١)
 واطلبُ تحته نعلي وما إن تحته نعلي
 فهل أحدٌ بما جمّشتُ جمّشَ شادناً قبلي

فهذه خطرات نواسية معروفة، والجاحظ نفسه أدرك أن أبا نواس وغيره من الأدباء والظرفاء لم يكونوا جادين في كل ما قالوه في الغلمان^(٢) بالرغم من أنهم أجادوا الوصف. وفي نموذج آخر يروي لنا أبو نواس قصة أمرد ناسك كان يتردد على المسجد للدرس والتحصيل ظل ينتقل به أبو نواس من علم إلى علم حتى أوقعه في حباله^(٣) أكثر من هذا وجدناه يشبّه بمحمد بن إسماعيل بن صبيح أثناء الطواف حين حج سنة ١٩٠ هـ^(٤).

لم يُنْسِنِي السَّعْيُ وَالطَّوْفُ وَلَا الدَّاعُونَ لِمَا ابْتَهَلْتُ وَابْتَهَلُوا^(٥)
 قَضَيْتُ بَابَ إِنْ قَامَ يَنْخَزِلُ وَإِنْ تَوَلَّى فَكَلُّهُ كَفَلُ
 مَيْسَانُ مِنْ حَيْثُ مَا عَطَفَتْ لَهُ حَيَاكُ وَجْهَهُ بِحُسْنِهِ الْمَثَلُ
 تَخَالَ خَذِيهِ لِاحْمَرَّاهِمَا يُفْتَحُ الْوَرْدَ فِيهِمَا الْخَجَلُ
 تَرَاهُ كَسْلَانَ مِنْ تَسَاقِطِهِ وَمَا بِهِ غَيْرُ نِعْمَةٍ كَسَلُ
 يَجُلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ فَكُلُّ حَسَنِ لِحْسَنِ خَوْلُ

بل لقد شبّه أبو نواس بابن صاحب المسجد وذلك حين قدمه أبوه للصلاة وقرأ: (أرأيت الذي يكذب بالدين . . .)، فقال أبو نواس مشبهاً بالغلام:

(١) ديوان أبي نواس ص ٩٢٨ ط. بغداد.

(٢) رسائل الجاحظ ١٠٥/٢.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١٧٥/١.

(٤) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص ٩٨. (٥) ديوان أبي نواس ٣٠٢/٤ تحقيق غريغور شولر.

وَقَرَأَ مُعَلِّناً لِيَصْدَعَ قَلْبِي وَالْهَوَى يَصْدَعُ الْفؤَادَ السَّقِيمَا^(١)
 أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكْذِبُ بِالذِّينِ فَذَاكَ الَّذِي يَدْعُ السِّيْمَا
 وكقوله أيضاً في غلام كان يصلي بجماعة مضمناً غزله بعض معاني القرآن الكريم وألفاظه كما
 فعل في البيتين السابقين:

وَلَمْ أَنَسْ مَا أَبْصَرْتَهُ مِنْ جَمَالِهِ وَقَدْ زَرْتُ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي مُصَلِّئًا^(٢)
 وَيَقْرَأُ فِي الْمَحْرَابِ وَالنَّاسُ خَلْفَهُ وَلَا تَقْتُلِ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
 فَقُلْتُ: تَأْمَلُ مَا تَقُولُ فَإِنَّهَا فَعَالِكُ يَا مَنْ تَقْتُلُ النَّاسَ عَيْنَاهُ
 ومثلما شبب أبو نواس بأبناء عليّة القوم فإنه لم يستكف من التشبيب بالخدم^(٣) وكذلك فعل في
 المديح.

يقول في خادم لإسماعيل بن سهل النوبيختي بعد أن اختلس منه قبلة فمسحها الغلام بكمه:

يَا مَاسِحَ الْقَبِيلَةِ مِنْ خَدِّهِ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كَانَ أَعْطَاهَا^(٤)
 خَشِيَتْ أَنْ يَعْرِفَ إِعْجَامَهَا مَوْلَاكَ فِي الْخَدِّ فَيَقْرَاهَا
 وَلَوْ عَلِمْنَا أَنَّهُ هَكَذَا كُنَّا إِذَا بُسْنَا مَسْحِنَاهَا
 فَصَارَ فِيهَا رَسْمُهَا بَاقِيًا يَعْرِفُهَا مَنْ يَتَهَجَّأُهَا
 أَوْ لَا، تَرَكْنَاهَا عَلَى حَالِهَا وَلَا مَهَا مِنْهَا مَحُونَاهَا
 فَكَانَ بَاقِيَ الْاسْمِ لِي قَبَّةً بِالْفَتْحِ فِي خَدِّكَ مَجْرَاهَا

فهذا غزل مدني وليد حضارة جديدة جعلت الجمع بين الأجناس المختلفة وبين الإناث
 والذكور من السهولة واليسر بحيث هيا لأمثال أبي نواس من العابثين والمجان أن يحملوا على الغزل
 كما عرفناه في العصرين الجاهلي والإسلامي ما ليس منه في شيء. وقد يكون كوثر خادم الأمين
 أشهر من تغزل فيهم أبو نواس من الخدم، خالطاً غزله بشيء من الخوف والحذر نظراً إلى مكانة
 كوثر من الأمين:

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٥٣/٢.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ٥٣/٢.

(٣) ديوان أبي نواس ١٤٨/٤ تحقيق غريغور شولر.

(٤) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

أصبحت صَباً ولا أقولُ: بمن من خَوْفٍ من لا يخافُ من أحدٍ^(١)
إن أنا فكُرت في هواي له حسستُ رأسي قد طار عن جسدي
إني على ما ذكرتُ من فرقي لا أملُ أن أنالهُ بيدي

والظاهر أنه كانت لأبي نواس هواية عشق غلمان القصور من الخدم . يقول في غلام يصفه بأنه شادن أي ظبي صغير، ممتدحاً مرباه حيث نشأ في رياض النعيم مشبهاً إياه في الحسن بالهلال :

وشادنٍ في القصورِ مثواه وفي رياضِ الجنانِ مأواه^(٢)
شبهته بالهلالِ حين بدا فقلتُ ربي وربك الله
وفي مقطوعة أخرى يكتشف أبو نواس عن ضرب من الشقاوة يعرف بها المجان والعاثون وهي ،
انتهاز غفلة الأهل والحراس حتى ينقضُ الذئب على الفريسة :

وا بأبي ظبيُّ به مسحَةٌ
رُبِّي بقصرِ الخلدِ في نعمةٍ
أغفلهُ البوابُ من شِقوتي
ومرٌّ للحينِ بنا ضحوةً
فصرتُ للشقوةِ في فخه
أسقمَ جسمي وبرى مُهجتي
مد شَبَّ في بغدادِ مأواه^(٣)
حباهُ بالنعمةِ مَولاهُ
فجاءني يضحكُ عطفاهُ
فصادَ مني القلبَ عيناهُ
كطائرٍ قُصَّ جناحاهُ
وسلَّ مني الروحَ صدغاهُ

وواضح أن الغلام القصري هو صنو الجارية القصرية كما عرفنا أبو نواس، فهذا الغلام من مولدي قصر الخلافة وهو غلام بغدادي له مثل ما لأهل بغداد وأهل القصور خاصة من الرقة والخفة والقدرة على إيقاع عشاقه في حباته . . . !

وكما كانت جميع مَنْ تغزل أبو نواس بهن من الجوارى ، كذلك كان جميع غلمانه من أبناء الموالى من الروم والفرس والنبط أو العباديين وهم جميعاً في حكم الرقيق والخدم من سقاة الحانات وغيرهم .

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٢١٩/١ .

(٢) ديوان أبي نواس ١٥٢/٤ تحقيق غريغور شولر .

(٣) المصدر السابق نفسه ١٥٣/٤ .

وهكذا وجدنا بين غلمانة المسيحي واليهودي^(١) وحتى يضيء أبو نواس على فنه الطرافة والخلابة وجدناه يتمادي في غزله إلى أن سوغ صحة دين الغلام الذي يتغزل به لينبذ دينه في سبيله، لولا خوفه من الخليفة الرشيد، قارناً ما بين جمال هذا الغلام وفتنته وبين مذهبه وعقيدته ليكون ذلك أكثر إغراء لأبي نواس:

بأكرتُها من كَفِّ أَعْيَدِ شَادِنٍ حَسَنَ التَّنْعَمِ فَوْقَ سُؤْلِ العَاشِقِ^(٢)
مُتَعَقِّبِ الصُّدُغِينَ، فِي لِحْظَاتِهِ فِتْنٌ لَهَا مَقْرُونَةٌ لِبَوَائِقِ
مَتَخَرِّسِنِ دِينِ النِّصَارِيِّ دِينُهُ ذِي قُرْطِقٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِنَائِقِ
لَبِقِ بَدِيعِ الحُسْنِ لَوْ كَلَّمْتَهُ لَنَبَذْتَ دِينَكَ كُلَّهُ مِنْ حَالِقِ
وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّنِي مُتَخَوِّفٌ أَنْ أَسْتَلِيَ بِإِمَامِ جَوْرِ فَاسِقِ
لَتَبَعْتُهُ فِي دِينِهِ وَدَخَلْتُهُ بِبَصِيرَةٍ فِيهِ دُخُولَ الوَائِقِ
إِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّ رَبِّي لَمْ يَكُنْ لِيُخْصَهُ إِلَّا بِدِينِ صَادِقِ

والملاحظ أن أبا نواس لم يجنح إلى التماذي في غزله بغلام يهودي جنوحه في غلمانة النصراني^(٣) بل لقد أزرى أكثر من مرة في خمرياته باليهود وما يضمرون من سوء نية^(٤) والمعروف أن معظم الجواربي والقيان وعمامة المملوكات وخدم القصور وسقاة الحانات من النصراني وهكذا ميز أبو نواس في غزله الغلماني بين أهل الديانات كما ميز بين الأمم والأجناس أيضاً إن بالنص لفظاً أو بذكر العادات والتقاليد والطوايع. فالغالب على أزياء غلمانة هي الطوايع الفارسية مع النص كثيراً على جنس الغلام أو ديانته. فهو عبادي مسيحي:

وَرَبٌّ مُخَصَّبِ الأَطْرَافِ رَخِصٍ مَلِيحِ الدَّلِّ ذِي وَجْهِ صَبِيحٍ^(٥)
ظَفَرْتُ بِهِ وَنَجْمُ الصَّبْحِ بَادٍ عِبَادِيًّا عَلَى دِينِ المَسِيحِ
أَوْ هُوَ نَصْرَانِي بِأَزْيَاءِ فَارِسِيَّةِ خِرَاسَانِيَّةِ:

مَتَخَرِّسِنِ دِينِ النِّصَارِيِّ دِينُهُ ذِي قُرْطِقٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِنَائِقِ^(٦)

(١) أخبار أبي نواس لابن منظور ٦٠/٢ .
(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٢٠ ط . الغزالي .
(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ٦٠/٢ ، ٦١ .
(٤) ديوان أبي نواس ص ٦١ ط . الغزالي .
(٥) المصدر السابق نفسه ص ١٦٤ .
(٦) ديوان أبي نواس ص ٢٢٠ ط . الغزالي .

أوهيتي، أي من أهل هيت^(١).

من أهل هيت، سَخِيَّ الجِرْمِ، ذِي أَدَبٍ له أقولُ مزاحاً هَاتِ يا هَيْتِي^(٢)
وربما دل عليه بشارة أهل الذمة، من ذلك لبس الزنار^(٣) كقوله:

يا عاقِدَ الزُّنارِ فِي الخَضِرِ بحرمةِ الحانَةِ والفهر^(٤)
و: من كَفَّ مُخْتَصِرَ الزُّنارِ، مُعْتَدِلٍ كغُضْنِ بَانٍ تَثْنَى، غَيْرِ ذِي أود^(٥)

وقد يسمي ببني جنسه وبعض لوازم زبنته، فهو عبادي ونصراني مستدلاً على ذلك بأن عيده
الرسمي هو يوم الأحد. تمييزاً له عن المسلمين وعن اليهود:

يَسْقِيكُهَا مِنْ بَنِي العِبَادِ رَشَاءً مِنْتَسِبُ عِيدُهُ إِلَى الأَحَدِ^(٦)
أوهو فارسي من نسل الملوك:

وساقٍ، غريرِ الطرفِ والدَّلِ فاتنٍ ربيبِ ملوكٍ كانَ والدُهُمُ كسرى^(٧)
وقد يعمي ذلك كله بنفي العروبة والإسلام عنه، فهو إذن ذمي اسمه سابا ولقبه شمرا:

وأحورَ ذمِّيٍ طرقتُ فِنَاءَهُ بفتيانِ صدقٍ ما ترى منهم نُكْرًا^(٨)
فقلتُ له ما الاسمُ حَيَّتَ؟ قالَ لي دَعَانِي أَبِي سابا ولقَّبَنِي شَمْرًا

هذا، والمعروف أن لأهل الخمر من باعة وخمّارين وسقاة بعض المواصفات ذكرها الجاحظ
منها أن يكون ذمياً، وأن يكون اسمه واحداً من جملة أسماء منها اسم «آذين» الذي كرره أبو نواس
كثيراً في خمرياتة، كقوله:

يُديرها خَنْثٌ فِي لهُوهِ دَمِثٌ من نسلِ آذِينِ ذُو قُرْطٍ ودُوَاجِ^(٩)

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٥٢ ط. آصاف.

(٢) هيت: مدينة عراقية ذكرت في الخطوط السومرية والبابلية (بلدان الخلافة الشرقية، لكي لسترنج، - هيت).

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي ١٣٩/٤ ط. دار الهلال.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٨٢ ط. الغزالي. والفهر: عيد لليهود أو معبدهم.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٦.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٥٢. (٧) ديوان أبي نواس ص ١١٩ ط. الغزالي.

(٨) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤. (٩) المصدر السابق نفسه ص ٤٨.

يُزْهِمِي عَلَيْنَا بَأْنَ اللَّيْلِ طَرْثُهُ وَالشَّمْسُ غَرْثُهُ وَاللُّونُ لِلْعَاجِ
وكقوله أيضاً من مقطوعة:

اسْقِنِي يَا أَبْنَ أَدِينٍ مِنْ شَرَابِ الزَّرْجُونِ^(١)

هذا، وقد لاحظت شيوع لهجة الإكبار والتمجيد في غلمانيات أبي نواس وهي لهجة تتجاوز الإعجاب الذي لا بد أن يكون مرافقاً للغزل إلى ما يشبه المهابة أو التوقير فمن ذلك قوله:

متايه بجماله صلف لا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهُ تَيْهَا^(٢)
للحسن في وجناته بدع ما إن يملُ الدرسَ قاريها
لو كانت الأشياءُ تعقله أجلَّته إجلالَ باريها
لو تستطيع الأرضُ لانبضتُ حتى يصيرَ جميعه فيها

يدل هذا النص على ضعف أبي نواس أمام معشوقيه من الغلمان ضعفاً لم يشعر به أمام معشوقاته من الجواري اللواتي هجا بعضهن وناجز بعضهن الآخر. في حين لم نقرأ له هجاء في غلام. فهو يسبغ على غلامه صفات الاختيال والتكبر منوهاً ببديع جماله وحسنه فالناظر إليه لا يمل من إطالة النظر محاولاً استجلاء كنه هذا الجمال العبقري بل إن أبا نواس لا يلبث طويلاً حتى يساوي بين إجلال الله عز وجل وإجلال هذا المخلوق الغلام، فلو تملك الأرض لتضامت أطرافها عليه حتى تحتضنه كله.

وقد تكررت لهجة الإكبار هذه في العديد من غلمانياته ولكن بصور مختلفة من ذلك تصويره لما تركه غلام من أثر في نفوس الناس حين مرّ بهم، فقد اشرأبت إليه العيون حتى أنها لطول تحديقها وشدة إمعان النظر أدمت خده:

مَرَّ وَالْعِيونَ تَرْمُقُهُ تَجْرِحُ مِنْهُ مَوَاضِعَ الْقُبُلِ^(٣)

وغلام أبي نواس رغم بديع جماله من قامته تشبه الغصن في استوائه، ووجنة تشبه الوردة في احمرارها ومن طيب رائحته وحلاوة منظوم كلامه إلا أنه فاتك شديد البأس قوي الشكيمة:

يَخْتَالُ فِي مَشِيَّتِهِ كَالْغِصْنِ فِي قَامَتِهِ^(٤)

(١) ديوان أبي نواس ص ٧٠. والزرجون كلمة فارسية معناها الشراب الذهبي.

(٢) أخبار أبي نواس لابن منظور ٦٧/١، ٦٨.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ٨٨/١. (٤) مختار الأغاني ٩١/٣.

والورد في وجنته والطيب في عكنته
والمسك في نكته والدر في لثغته
والفتك من همته والبأس في قبضته

إن في غزل أبي نواس الغلmani من الإكبار لمحبوبه ما لم نجد في غزله النسائي وهذا أمر غريب فلم أفع في غزله النسائي على مثل هذا الإكبار للحبيب أو الاستحياء منه إكباراً وتعظيماً ولا مثل هذا الاسترقاق حين يرتضي لا بعداب محبوبه ولا بشقائه فيه فحسب بل بالتنازل عن عقيدته طائعاً مختاراً:

تمرُّ فأستحيك أن اتكلما ويهتزُّ في ثوبيك كلَّ عشيّة
وبحسبك إن الجسم قد شفه الهوى وإن جفون العين ذارفة دما
أليس عظيمًا عند كل موجدٍ غزالٌ مسيحيُّ يُعذبُ مسلمًا
فلولا دخول النار بعد تنصّرٍ عبتُ مكانَ الله عيسى بن مريمًا

أكثر من هذا وجدنا في بعض غزله الغلmani ما وجدناه في غزله في جنان من التسامي عن المبادل ومن الأفكار التأملية من ذلك اصطناعه مذاهب المتكلمين في إحدى مقطوعاته الغلمانية وهو قوله:

يا عاقد القلب مني ألا تذكّرتَ حلاً (١)
تركّت مني قليلاً من القليل أقلّ
يكاد لا يتجزأ أقلُّ في اللفظ من لا

في هذه المقطوعة إشارة إلى فكرة الجوهر الفرد والجزء الذي لا يتجزأ. وقد سبقت الإشارة إلى هذه المقطوعة في حديثنا عن ثقافة أبي نواس في الجزء الأول من هذه الدراسة كذلك نالت هذه المقطوعة إعجاب النظام المعتزلي الكبير حتى جعلته يسعى إلى الشاعر مادحاً ومقرظاً عاداً إياه أشعر الناس في هذا المعنى (٢) والحق أن أبا نواس استطاع أن يراوح بين الفكر والوجدان، بين

(١) ديوان أبي نواس ٤/٣٢٠ تحقيق غريغور شولر.

(٢) المصدر السابق نفسه ٤/٢٩٣، وأخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٣.

(٣) أخبار أبي نواس لابن منظور ١/١٤٩.

المنزِع التأملي وفيض المشاعر في أسلوب أخاذ أثرى الغزل بعمق الفكري وأضفى على الفكر جاذبية وطرافة ليظل أسلوبه الشعري محتفظاً بالعدوية والسلاسة المعهودتين .

بل لقد رأيناه يقترب في غزله الغلmani من غزله في جنان في صورته العذرية وفي مضمونه الفكري حتى كاد يكرر ما قاله في مقطوعته المشهورة في جنان :

وَذَاتِ خَدِّ مَوْرَدٍ فَتَانَةِ الْمُتَجَرِّدِ

من أن طول النظر إلى وجه الحبيب يجدد محاسنه في نفس الناظر أو يزيد فيها . ومثل هذا قوله في غلام من قصيدة له هجا بها عشاق العرب :

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَنَ مِنْ أَزْرَارِهِ قَمَرًا^(١)

.....

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زَدْتَهُ نَظْرًا

وقد راق هذا المعنى الدقيق العميق «أبا عبيدة» .

حتى قال : (ما حفظت شعراً لمحدث إلا قول أبي نواس)^(٢) وذكر المقطوعة !

ومثل ذلك قوله أيضاً في غلام مكرراً المعنى نفسه :

وَبِدَيْعِ الْحَسَنِ قَدْ فَاقَ الرَّشَّاءَ حُسْنًا وَلِينًا^(٣)

تَحْسِبُ الْوَرْدَ بِخَدِّيهِ يُنَاغِي الْيَاسْمِينَ

كَلِمًا أَزْدَدْتُ إِلَيْهِ نَظْرًا زَدْتُ جَنُونًَا . . .

أي إن تكرار النظر في وجه المحبوب يزيد الناظر شغفاً وهياماً به .

ومن مظاهر التسامي في غزل أبي نواس الغلmani كثرة اصطناع مراسم التأدب في المخاطبة وهي لغة غزلية مستحدثة استخدمها في غزله بالموثث أيضاً وقد حاول «عبدالرحمن صدقي» أن يرد هذه الظاهرة إلى عصر هارون الرشيد^(٤) إلا أنني أرى أن بذور هذه الظاهرة تعود إلى قيام الدولة العباسية حيث أخذت تشيع الطوابع الفارسية، حتى إذا جاء المنصور جعل الكثير من تلك الطوابع

(١) ديوان أبي نواس ص ٥٥٩ ط . الغزالي .

(٢) العمدة ١٤١/٢ .

(٣) ديوان أبي نواس ٣٣٩/٤ تحقيق غريغور شولر .

(٤) ألحان الحان ص ٣١٥ .

تقاليد لدولته في المعاملات الرسمية . ثم ألف الجاحظ كتابه «التاج في أخلاق الملوك» الذي تناول فيه مراسم الخلافة وأصول الدخول على الملوك والأداب المتبعة في منادمتهم حتى وجدنا أبا نواس وغيره من شعراء الغزل في أواخر القرن الثاني الهجري يستوحون تلك المراسم والتقاليد المرعية في أشعارهم، من ذلك مخاطبة أبي نواس محبوبه بلفظ سيدي في مقام المواساة والمشاركة في المصاب لما حل به من حمى :

فديتكَ جسمي كان أحمل للشكوى وكان عليها منك يا سيدي أقوى^(١)
فديتك لم أنصفك إذ أنت لابس شعاراً من الحمى ولم البس الجُمى
فديتك لو أن الذي بك يُفتدى بدنيّاي لم أذخرُك شيئاً من الدنيا
وبلفظ «مولائي» أي مولاي في قوله :

واهاً لسُقمي وطولِ بلوائِي أو لنارِ تذيبُ أحشائي^(٢)
دجلةُ همّي وفكرتي وبها كان لحين فراق مولائي
وفي مقطوعة له قالها متغزلاً في غلامٍ يسترضيه بأرق اللفظ وغاية التذلل واصفاً نفسه بالعبد لمحبوبه مخاطباً إياه بحياتي . . . وأميري :

قلّ لذي الوجه الطيرِ ولذي الرُدفِ الوثيرِ^(٣)
ولمغلاقِ همومي ولمفتاحِ سُروري
والذي يبخلُ عني بقليلٍ من كثيرِ
لم تغضبتِ على عبديك في خطبٍ يسيرِ
فارضِ عني بحياتي يا حياتي وأميري

ومن الجديد في غزل أبي نواس في المذكر شيوع اصطلاحات أصحاب الكلام والفقهاء والمنطق^(٤) مثل قوله :

-
- (١) ديوان أبي نواس ص ٤٠٧ ط . آصاف .
(٢) ديوان أبي نواس ١٥٠/٤ تحقيق غريغور شولر .
(٣) المصدر السابق نفسه ٢٠٨/٤ .
(٤) أبو نواس بين التخطي والالتزام لعلي شلق ص ٢٤٠ .

فَلَانُ جَادَ لِي بَعْدَ امْتِنَاعٍ كَذَاكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ^(١)
أو كقوله:

- مَا طَارَ طَرْفِي إِلَى تَحْصِيلِ صُورَتِهِ
- فَقَالَ إِلَيْكَ يَا جَمَاشُ عَنَّا
أو كقوله أيضاً:

فَوَا حِرْبَاهُ مِنْ عَيْنِي بَلَدْتَهَا جَنَّتْ ضَرْرِي^(٢)
فَإِنْ عَاتَبْتُهَا فِيهِ أَحَالَتَنِي عَلَى الْقَدْرِ
فَتَخْصِمُنِي فَاسْكُتْ لَأَ أَحِيرُ الْقَوْلَ كَالْحَجَرِ
أبو نواس يرجع ما جنت عليه عينه من ضرر على القدر، وهو ضرر كما تقول عينه، مكتوب عليه فعلاً لا حيلة لها ولا لأبي نواس نفسه فيه . . . !

وكقوله أيضاً مصطنعاً اصطلاحات الفقهاء وأحكامهم الشرعية:

لَا زَلْتُ صَائِمَ سُخْطِكُمْ حَتَّى يُفْطِرَنِي الرِّضَا^(٣)

و:

طَرْفَكَ زَانٍ قُلْتُ دَمْعِي إِذَا يَجْلُدُهُ أَكْثَرَ مِنْ حَدِّ^(٤)
ولعل في المقطوعة التالية جماع منحى أبي نواس المستحدث في غزله هذا من تأمل فلسفي، ومنطق عقلائي، وأحكام فقهية شرعية:

شَبِيهَةٌ بِالْقَضِيْبِ وَبِالْكَيْثِيبِ غَرِيْبُ الْحُسْنِ فِي قَدِّ غَرِيْبِ^(٥)
بَعِيْدٌ إِنْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ يَوْمًا رَجَعْتَ وَأَنْتَ ذُو أَجَلٍ قَرِيْبِ
تَرَى لِلصَّمْتِ وَالْحَرَكَاتِ فِيهِ سَهَامًا لَا تَذَاذُ عَنِ الْقُلُوبِ
وَيَمْتَحِنُ الصَّدُورَ بِسِقَاتِيهِ فَيَنْكَشِفُ الْبِسْرِيءَ مِنَ الْمَرِيْبِ

(١) ديوان أبي نواس ص ٤١٩ ط. اصف.

(٢) نفسه ص ٤٣١.

(٣) نفسه ص ٤٢٧.

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٤١٨.

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤٠٨، ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص ٣٢٦، ديوان أبي نواس ١٥٧/٤.

فيا من صيغ من حُسنٍ وطيبٍ وجلُّ عن المُشاكلِ والضُّريبِ
اصبني منك يا أملي بذنبٍ تتيه على الذَّنوبِ به ذُنوبي

في هذه المقطوعة يتغنى أبو نواس بمحاسن غلامه «جندب» الذي كان أبوه على شرطة الخلافة زمن الأمين وقد غلب فيها المقاييس الجمالية المعهودة من قد ممشوق كالغصن، وردف وافر مثل كتيب الرمل، لكن هذا المحبوب بعيد المثال وإن يكن عشقه يقرب الأجال، وهي مقابلة حسنة جمع فيها أبو نواس بين اليأس والأمل، وكذلك وصفه في حاله ساكناً ومتحركاً بأن سهامه تحمي القلوب فلا يمكن ذودها عنها، وبأنه ثاقب النظر، تتجلى أمامه أسرار القلوب فيعرف البريء من المريب، وهكذا كان مثلاً نادراً لا نظير له في حسنه وطيبه.

أما فيما يتصل بالأوصاف التي خلعتها أبو نواس على غلمانه فالغالب عليها أن تكون منتزعة من صميم حيوات أولئك الغلمان بأزيائهم الجديدة، وأساليبهم الغربية وهي أزياء وأشكال قربت ما بين أولئك الغلمان والجواري خاصة الغلاميات منهن، واللواتي قلنا إنهن شكلن عند أبي نواس جنساً وسطاً بين الأنثى والذكر، حين خطون من الأنثى باتجاه الذكر، ومثلهن كان هؤلاء الغلمان جنساً وسطاً بين الذكر والأنثى، حين خطوا من الذكر باتجاه الأنثى. وإذا كان أبو نواس قد حار في تحديد شخصية غلامية إن كانت ذكراً أم أنثى وذلك حيث يقول:

فابن لي: اكعابُ أنت أم أنت غلامٌ^(١)
وكقوله أيضاً:

لها شكُلُ الإنانِ وبينَ بَيْنِ ترى فيها تكاربه الغلام^(٢)
فإنه يتردد في شخصية غلامه أيضاً بين الذكر والأنثى حيث يقول:

وموحد في الحُسنِ، جللُهُ بردائه ذو الطُولِ والقُدسِ^(٣)
إن شئتَ قلتَ خريدةٌ جُلِّيتُ للشُّربِ يومَ صبيحةِ العُرسِ
إن أبا نواس يتجه بجمال هذا الغلام نحو الجمال الأنثوي...!
وكذلك قوله:

ومشترك فيه إذا الوهمُ نالهُ تخنُّتُ أنثى واعتدالُ غلام^(٤)

(٢) ديوان أبي نواس ط. أصف ص ٣٢٧.

(١) ديوان أبي نواس ٤/٣٢٨.

(٤) ألحان الحان ص ٣٠٥.

(٣) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص ٢١٦.

حتى إذا جمع النص الشعري ما بين ساق (غلام) وساقية (غلامية) أو لنقل ما بين ساق وساقية أو غلام وجارية غلبت الصفات الأنثوية على الساقية أو المذكر نفسه، مثال ذلك قول الشاعر في إحدى خمرياته:

لَا سِيمَا إِنْ أُدِيرَتْ مِنْ مُقْرَظَقَةٍ^(١) أَوْ مَرَهْفٍ كَقَضِيْبِ الْبَانِ مِيَّاسٍ^(٢)
إِطْرَاقُهُ مُطْمِعٌ، وَالْوَضْلُ مَمْتَنَعٌ فَأَنْتَ مِنْهُ عَلَى الْإِطْمَاعِ وَالْيَاسِ

فهذا الساقية صورة أخرى من الأنثى، كما تدل عليه الصفات الأنثوية التي أضفاها عليه الشاعر، فهو دقيق الخصر هضيم الكشح ممشوق القد، يهتز ويميل في خطوه طرباً ودلالاً، كما تفعل الصبايا الحسان المعتدة بجمالها، كما يجلو لنا أبو نواس جانباً من نفسية هذا الغلام حين يجعل إطراقه ساكناً بلا حراك كأسلوب للإثارة والإغراء، ومع هذا فالوصول إليه ممنوع، وهكذا يظل عاشقه أسيراً لهواجسه متأرجحاً ما بين اليأس والأمل، دون أن يستقر به الحال على بأس مريح أو أمل واعد...!

والظاهر أن هذا الجنس الثالث قد كان له وجود فعلاً بعد التشويه الحضاري الذي لحق ببعض قطاعات المجتمع العباسي، وأسميه المجتمع العباسي حتى نسبه إلى مختلف الأجناس والعناصر التي شاركت في تكوينه حتى وجدنا هناك ظاهرة غريبة على المجتمعات العربية والإسلامية غير مألوفة وهي ظاهرة المرأة المذكرة والرجل المؤنث كما دللتنا عليهما غلاميات وغلمانيات أبي نواس. ينقل الجاحظ عن عثمان بن الحكم قوله: (كان عدنا في الحي فتي ولدته امرأة مذكرة لرجل مؤنث، فما رأيت ولا سمعت بخلق ردي من أخلاق البغال إلا وقد رأيت فيه)^(٣) وقد تابع الجاحظ هذه الفكرة في كتاب الحيوان حيث يقول: (وشر الطباع ما تجاذبه الأعراق المتضادة والأخلاق المتفاوتة والعناصر المتباعدة كإس المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال)^(٤).

هذا، وقد كان للأزياء المستحدثة التي أخذ يتزيا بها الغلمان في هذا العصر وغيرها من الملابس والأساليب التي اصطنعها الغلمان أثرها الواضح في غزل أبي نواس الغلماني من تلك الأساليب الحركات والكلام والمشي وإطالة الشعور أو تقصيرها خطت بالأنثى كما قلت خطوة نحو الذكر وبالذكر خطوة نحو الأنثى ليلتقيا في منتصف الطريق فيما أسميناه بالجنس الثالث.

(١) المقرظقة: لاسية القرض وهو ثوب فارسي. المرهف: الرقيق، الضامر. ماس: اهتز وماز.

(٢) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص ٢١١.

(٣) رسائل الجاحظ ٢/ ٢٥٦.

(٤) الحيوان ١/ ١٠٣.

يقول عبدالرحمن صدقي : (ولقد كان لشباب بغداد في ذلك العهد بدعة في تسوية شعرهم فكان الشاب منهم يحدق شعره على جبينه دون أن يبلغ جبهته ويسويه مع حاجبيه ثم يدوره إلى أذنيه بعد مسحه بالعنبر أو تنديته بالمسك ثم يسدله إلى صدغيه)^(١) وفي ذلك يقول أبو نواس :

صُدغَاهُ قَدْ سَالَا عَلَى خَدِّهِ مِثْلَ عِنَاقِيدِ عَلَى وَرْدٍ^(٢)
وَصَوْلَجَانُ الصُّدُغِ مَسْتَمِكِينَ لِلضَّرْبِ مِنْ تَفَاحَةِ الخَدِّ

وما أظن أن أحداً يصدق أن هذا الشعر المقصود به غير أنثى أو من هو في حكمها، بعد أن أجاد أبو نواس في رسم صورة المتغزل به بدرجة مقاربة جداً من الأنثى . وهكذا كان إحساس أبي نواس بهذا الجانب من شخصية المتغزل به ينسبه جنسه ، أو نوعه ليضفي عليه نفس المواقف أو المقاييس المتوارثة .

والواقع أن أبا نواس كان إذا صدق في عاطفته تجاه أي غلام وقف منه موقف العاشق المؤلف في تراثنا وموروثنا الغزلي لأن كثيراً مما قاله أبو نواس في الغلمان هو من قبيل اللهو والعبث والمجون يقول أبو نواس :

يا تاركِي جسدًا بغير فؤادٍ أسرفتَ في هجرِي وفي إبعادي^(٣)
إن كانَ يَمْنَعُكَ الزِيارَةُ أَعْيُنٌ فادخُلْ عَلَيَّ بَعْلَةَ العُودِ
إن السعيونَ على القلوبِ إذا جنتِ رجعتْ مَضْرُوتُهَا على الأَجْسَادِ
أشكو إِلَيْكَ جَفَاءَ أَهْلِكَ، إِنَّهُمْ ضَرُّوا عَلَيَّ الأَرْضَ بالأَسْدَادِ

فهل هناك أرق وأعذب وأحلى على اللسان من هذا الكلام العذب الرقيق الحلو، إن الصدق يطل من كل كلمة من كلمات هذه المقطوعة الصدق الحسي والصدق الفني وهما متطابقان متكاملان ليدكرانا بجمال الشعر، من غير أن نشوه صورة ما ترسمه لنا المقطوعة، بأنها قيلت في مذكر، ولماذا لا يكون أبو نواس يعنى ويكذب أو يهزل ويعبث ولا يصدق في بعض غزله الغلماني، ولا أدري كيف يكون هذا الشاعر صادقاً في غزله، وهو يقرظ غلاماً أو جملة من الغلمان، تجاوزوا مرحلة المرودة، إلى الشباب فالرجولة، ليصدق بعض من درسوا أبا نواس أو نقلوا أخباره أنه معجب

(١) ألحان الحان ص ٣٠٥ .

(٢) ديوان أبي نواس ١٩٦/٤ تحقيق غريغور شولر .

(٣) ديوان أبي نواس ص ١٩٧/٤ .

بالغلام حتى بعد أن صار صاحب لحية، مع أن الجاحظ يذكر على لسان صاحب الجواري أن الغلام (أكثر ما تبقى بهجته ونقاء خديه عشرة أعوام إلى أن تتصل لحيته ويخرج من حد المرودة)^(١) ولكن أبا نواس يأبى إلا أن يلاحق غلامه حتى مرحلة الرجولة مشبهاً شعر لحيته مرة بالزغب النابت، عادا ذلك من أسباب فتنته وغوايته، ومرة أخرى بالزعفران على أرض من المسك ثم ما يتبع ذلك من فحش وإباحية:

رَأَى بِخَدَيْهِ نَابِتًا زَغْبًا فَضَنَّ عَنِّي هُنَاكَ بِالْقُبَلِ^(٢)
 وَقَالَ قَدْ صَرْتُ يَا فَتَى رَجُلًا وَذَا قَبِيحٌ أَرَاهُ بِالرَّجْلِ
 فَقُلْتُ يَا مَنْ زَهَا بِلِخْيَتِهِ الْآنَ وَاللَّهِ طَبَّتْ لِلْعَمَلِ
 ذَا زَعْفَرَانٌ وَالْمَسْكُ تَرَبَّتُهُ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ صُدْغِكَ الرَّجْلِ

هذا، في حين يذكر أبو نواس في نص آخر، إن الغلام الذي يعجبه من كان دون سن الاحتلام أو في سن المرودة، كقوله من قصيدة في تمليح الغلمان وتفضيلهم على النساء:

مَنْ يَكُنْ يَعَشِقُ النِّسَاءَ فَإِنِّي مَوْلَعُ الْقَلْبِ بِالْغَلَامِ الْظَّرِيفِ^(٣)
 حِينَ أَوْفَى عَلَى ثَلَاثٍ، وَعَشْرٍ لَمْ يَطُلْ عَهْدُ إِذْنِهِ بِالشُّنْسُوفِ
 وكقوله أيضاً معلناً صراحة عن شروطه في الغلام وهي الصغر في السن قبيل الاحتلام، طرى خالية بشرته من الشعر.

فوق الخماس لما طر شاربه رخص البنان خلا من جلده الشعر بل إنه حين وجه بساقين كان يعشقهما، فضل أصغرهما سناً، الذي لم تنبت له لحية ولا شارب، وهو ساق غرير قد عقرب شعر صدغه، وارتدى القباء الفارسي، وهو الذي ميزه الله بفتنة الجمال، بحسن في جبينه وحاجبيه:

أَشْتَهِي السَّاقِيَيْنِ لَكِنَّ قَلْبِي مَسْتَهَامٌ بِأَصْغَرِ السَّاقِيَيْنِ^(٤)
 لَيْسَ بِاللَّابِسِ الْقَمِيصَ وَلَكِنْ ذِي الْقَبَاءِ الْمُعْقَرِبِ الصُّدْغَيْنِ
 الَّذِي بِالْجَمَالِ زَيْنُهُ اللَّهْ وَحَسَنِ الْجَبِينِ وَالْحَاجِبَيْنِ

(١) رسائل الجاحظ ١٢٢/٢.

(٢) أخبار أبي نواس لأبي هفان ص ٤٨، أخبار أبي نواس لابن منظور ١٧٤/١.

(٣) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص ٧٢٠. (٤) ديوان أبي نواس ص ٣٥٣ ط. آصاف.

ولهذا رفض أبو نواس الغلام إذا كانت له لحية ثابتة، وإنما هواه في الأمرد الطرير الأهيف ذي الردف الوافر من الغلمان:

يعجبني الأمردُ الطريرُ إذا أبصرته أهيفاً له كفلُ^(١)
حتى إذا ما رأيتُ لحيته فليس بيني وبينه عملُ

وإذن، فليس من المعقول أن يعنى أبو نواس عن مواطن الجمال في الإنسان، ما دام العصر كان يضع أمامه الاختيارات الكثيرة بغض النظر عن الجانب الأخلاقي، ليتعلق برجل كثر اللحية والشارب...!

وشبهه بهذا ما تنقل لنا الأخبار والأشعار أيضاً عن غرامه بغلام في عينه كوكب، حتى أن صديقه «ابن الداية» عاتبه على هذا الغرام منبهاً إياه إلى ما في الغلام من عور واصفاً الكوكب الذي في عينه بأنه أعظم من كوكب الذنب ومع هذا فقد قال أبو نواس في الغلام متغزلاً^(٢):

أحورُ المقلّةِ من غيرِ دَعَجٍ لو عداهُ عورُ العَيْنِ سَمُجٌ^(٣)
تحسب النكتهُ في ناظره درةً بيضاءَ في فصِّ سَبَجٍ^(٤)

المفاضلة بين الغلام والجارية:

إذا كان أبو نواس، انتهى في غزله الشاذ كما قدمنا إلى الأزراء بالمرأة باعتبارها موضوع الغزل الطبيعي، فإن ذلك معناه أن الشاعر قد جمع به الشذوذ إلى درجة من التماذي خرج بها من كون هذا الغزل قضية فردية هي هذه العلاقة الشاذة الخاصة، إلى جعله قضية عامة، وذلك حين وضع هذا الغزل في تضاد مستمر مع ما اصطلاح عليه المجتمع من علاقة الرجل بالمرأة، أما لماذا لم تصادفنا مثل هذه الجدلية في غزله بالغلاميات. فلأنه بالإضافة إلى كونه لم يتجاوز فيها المرأة إلى الغلام بتوفيقه ما بينهما فيما أسميناه بالجنس الثالث، لم يتخل في تلك الغلاميات عن المرأة من جهة، ولأنه أيضاً قد أقام في تلك الغلاميات ما بين الرجل والمرأة جسراً من التوافق، من خلال الزي المشترك أو السلوك المصطنع حتى أنه كثيراً ما كان يشير إلى مهمة الغلامية المزدوجة باعتبارها مذكرة مؤنثة. أما في غلمانياته فالموقف مختلف، إذ جره شغفه بالغللمان إلى تجاوز الدفاع عن

(١) أخبار أبي نواس ١/١٥٧.

(٢) نفسه ١/١٠٣.

(٣) سمج: قبح.

(٤) النكته: النقطة. والسبج: جمع سبيجة وهي كساء أسود.

الغلام إلى المفاضلة بينه وبين الأنثى ليتهاي إلى النتيجة الطبيعية المتوقعة وهي القول بأفضلية الغلام على الجارية .

ونظراً إلى أن أبا نواس لم يكن بدعاً عند الأقدمين لا في شذوذه الشخصي ولا في شذوذه الفني ، كذلك كان غاية ما لاحظوه عليه ، الكثرة في شذوذه أو التفوق في فنه ، وأحياناً كانوا يعدون غزله بالمذكر من قبيل الهزل والعبث أو التماجن أما المحدثون ، فقد حاولوا أن يربطوا بين شذوذ أبي نواس الشخصي ، وشذوذه الفني وهذا غير صحيح ؛ لأن شذوذه الشخصي ليس علة في شذوذه الفني ، ففيهما جميعاً كان أبو نواس مسبقاً من غير أن نلاحظ أن أحد الشذوذيين كان عند الآخرين ، علة في الآخر أو نتيجة محصلة له . . . !

هذا ، ومهما حاولنا تفسير ما جاء به أبو نواس من تصورات للمرأة أو الرجل والعلاقة بينهما . وموقف كل واحد منهما من الآخر ، فإن العبرة الأخيرة تظل لشعره الذي قاله في هذه القضية أو تلك بعيداً عن تخرصات النفسانيين التي لم تزدنا إلا تمادياً في تجهيل أبي نواس إلينا ، فالعلل والعقد والأسباب المباشرة وغير المباشرة التي حامت حول أبي نواس في تعليل أو تفسير أية ظاهرة شعرية عنده بغض النظر عن مضمونها الاجتماعي أو الفني مردها أخيراً إلى النص الشعري ، بلغته الشعرية ، وأبعادها الفنية ، وهكذا تجاوزنا عن كل ما أعددناه لهذه القضية التي صمدنا لها عنوان هذه الكلمة ، لنعمد مباشرة إلى النص الشعري الذي إليه كان مردنا في الحكم واستخلاص النتائج . . . !

هذا ، ولا يكاد أبو نواس يتركنا في شك مما يريد أن يحمله إلينا مهما كان موافقاً لأمزجتنا أو مخالفناً ، وهكذا جاءنا أبو نواس ببدعة أفضلية الغلام على الأنثى ، مازجاً بين الجد والمجون أو بين الإحساس الصادق أحياناً وبين السخرية أو العبث . ولعل ذلك هو الذي جعل الجاحظ يعتبر بعض ما قاله أبو نواس في تمليح الغلمان وذم النساء من الهزل^(١) بل نستطيع أن نقول أن ما قاله في هذه القضية لا يخرج عن كونه انطباعات آنية ليس لها صفة الحكم أو الرأي الثابت حتى أنه تناقض في بعضها كما سنرى . وكان بعضها الآخر أشبه بالمناجزات التي دارت بينه وبين بعض القيان والجواري منه بالغزل نفسه سواء الذي قاله في المذكر أو المؤنث!

هذا ، ولعلنا لا ننسى أن أبا نواس أغرم بالغلاميات من الجواري وتغنى كثيراً بأزيائهن وأساليههن كما أشرنا من قبل ولكننا نراه يزري بهن ، مفضلاً الغلام على الغلامية ، وكلاهما كما بينا يقفان في

(١) رسائل الجاحظ ٢ / ١١١-١١٤ (مفاخرة الجواري والغلمان).

متنصف المرحلة بين الذكر والأنثى، أو بين الأنثى والذكر.

لا أبتغي بالمُرد مطمومةً ولا أبيع الظبي بالأرنب^(١)
على أن بعض انصرافه عن النساء إلى الغلمان قد يكون سببه أنه لم يكن مجدوداً منهن^(٢)
أو لأنه كان محروماً من حبهن. حتى أن جناناً، حبه الوحيد لم تبادله الحب ليتتهي به الحال إلى
اليأس والقنوط، وهكذا، علّق أبو نواس وإن يكن بصورة خفية، الارتباط بالمرأة، على الإعجاب
المتبادل الذي كان محروماً هو منه، ليتجاوزه إلى معين آخر ينهل منه، أو شاطئ موحل آخر، يدفن
فيه آلامه وخيبة آماله:

مَنْ كان تعجُّبه الأنثى ويعجُّبها من الرجال فإني شقني الذكراً^(٣)
بهذا يمكن تفسير رفضه الزواج أيضاً^(٤)، الذي لا يخرج عن كونه تهيئة للعلاقة الطبيعية التي
ترتبط بين الرجل والمرأة والتي تقوم على الإعجاب المتبادل، مستبدلاً بها هذه العلاقة الشاذة مع
الغلمان التي تجدد الإعجاب المفقود ولذلك كانت حجته في الدفاع عن شغفه بالغلمان تقوم على
صورة المرأة من حيث هي جنس أو نوع أو أحد طرفي القضية المطروحة، مزيهاً بها، ساخراً منها.
ثم رافضاً لها:

صاحبة القرقرة^(٥) لا تشغبي تحملي، طالقاً واذهبي^(٦)
مري فكم مثلك من حرة راعة لم تك من مطلبي
لا أبتغي بالطمث مطمومةً ولا أبيع الظبي بالأرنب
لا أشتهي الحيض ولا أهله غيرك أشهى منك في المركب
أولا فإن كنت غلامية من شرط مثلي، فردي مشربي

إذن هو يقبل المرأة، إن كانت غلامية توافق شرطه الذي رفضته «جنان» وأرادت أن تستبدل به
شرطاً آخر هو هذه العلاقة الطبيعية ما بين الرجل والمرأة ولكنه رفض الاستجابة لطلبها فكانت
القطيعة... ولعل ذلك كان شأنه مع جميع النساء، ما خلا الغلاميات اللاتي كن يوافقن شروطه
فهذه واحدة كررت نفس موقف «جنان» لائمة إياه على اختياره غلاماً على غانية رامية إياه بالجهل

(٢) أخبار أبي نواس ١٨٢/١.

(١) رسائل الجاحظ ١١١/٢.

(٤) المصدر السابق نفسه ١٠٦/١.

(٣) أخبار أبي نواس ٨٧/١.

(٥) القرقرة: لباس النساء خاصة. الشغب: تهيج الشر. (٦) أخبار أبي نواس ١٠٦/١.

وعدم التوفيق، ولكن أبا نواس يرميها بالجهل كما رمته، رافضاً أن يعلل نفسه بالسفاسف وبما لا طائل من ورائه (؟) . . . لأن ذلك هو اختياره الأبدي رغم كراهيتها له :

وعاذلة تلومُ علي اصطفاي
وقالت: قد حُرِّمَتْ ولم توفَّقْ
فقلت لها: جهلتِ فليس مثلي
أأختارُ البحارَ على البراري
دعيني لا تلوميني فإنني
غلاماً واضحاً مثل المَهَاة^(١)
لطيبِ هوى وصالِ الغنانياتِ
يُخادع نفسه بالترهاتِ
وأحياناً على ظبي الفلاةِ
على ما تكْرهين إلى المماتِ

وفي موقف آخر، دس له أهله امرأة لتغريه بالزواج من امرأة سرية، فقدم أسباباً ثلاثة لرفض العرض هي: الفسق، وضعف العقيدة والإفلاس، والمعروف عن أبي نواس المجاهرة بالفسق، والتجاوز في الدين، وأنه لم يكن يبقى على شيء يصل إليه. وهي أسباب واضحة فيها طابع العبث والمجون والسخرية، ولكنه يضيف إليها ما يمكن أن يفضح سر انصرافه عن الزواج وهو رغبته في أن يظل طليقاً من أسار أي قيد سواء كان هذا القيد ديناً أم تقليداً أم عرفاً أم زوجاً وولداً . . . !

أقولُ لها لما أتتني تدلّني
أصبتُ لها يا أختُ فحلاً كما اشتتُ
فمنهنَّ فسقٌ لا يُنادي وليدُهُ
ولو أنها في الحُسنِ كانت كيوسفِ
وقالت: تزوجني على مهرِ درهمِ
على امرأةٍ موصوفةٍ بجمالِ^(٢)
إذا اغتفرتُ مني ثلاثَ خصالِ
ورقةٌ إسلامٍ، وقلةٌ مالِ
وبلقيسٍ، أو كانت كحطّ مثالِ
لقلتُ: اعزّبي عني فمهرُك غالي

إن أبا نواس لا يعغريه إذن، ما يعغري كل رجل في المرأة من جمال وثراء ولا التخفف من أعباء الزواج، وإنما هو يرفض الزواج كالتزام ومسؤولية، لأنه يحد من حريته ولعل هذا السبب لم يحاول أحد من الكُتّاب أن يوليه من الأهمية ما هو جدير بها وإنما راح غالبيتهم يبحث في الأسباب البعيدة والقريبة لشذوذه التي أدت به إلى رفض المرأة ليرفض الزواج، مع أنه في الحقيقة لم يقلع عن طلب المرأة، سواء أكانت جناناً أم إحدى الجوارى الأخريات، أم كانت غلامية في نفس الوقت الذي كان فيه يطلب الغلام أيضاً . . . !

وفي مجال المفاضلة بين الغلام والمرأة يميز أبو نواس بينهما كجنسين مختلفين معترفاً بما

(٢) نفسه ١٠٨/١.

(١) أخبار أبي نواس ١٠٧/١.

للمرأة من ميزة الجمال التي ربما أضفاها على غلامه، ولكنه يجعله عن أن يوارى جماله الشبيه
بجمال المرأة أثم بني جنسها، وهي الطمث والحيض وما إلى ذلك من حبل وولادة...!

وموَحَّدِ فِي الْحَسَنِ جَلَّلَهُ بِرَدَائِهِ ذُو الطُّوْلِ وَالْقُدْسِ^(١)
إِنْ شَتَّ قَلْتَ خَرِيدَةً جُلَيْتَ لِلشَّرْبِ يَوْمَ صَبِيحَةِ العُرْسِ
وَأَعْيْذُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا تَحْتَ مِئْزَرِهَا مِنَ الرَّجْسِ

هكذا كان غزل أبي نواس من الوفرة في الكم والتعدد في الفنون بحيث لم يترك جانباً من غزل
العصر العباسي، العفيف منه والإباحي أو الطبيعي والشاذ إلا تناوله في غير اعتدال. فإذا لم يكن
مبتكراً في كل فنون غزله فإنه كان المجلي في البعض والمكمل لمسيرة البعض الأخر ثم المتفوق
أو المبدع في البعض الثالث. فغزله كفيء عدل لخمرة وإن عده النقاد فنه التجديدي الثاني. لكنه
من غير شك لا يساويه في كثرته ولا تفننه ولا في ابتكاراته غزل أي شاعر آخر معاصر له.

(١) ديوان أبي نواس، ص ٢١٦ ط. الغزالي.